لينا هويان الحسن

الذئاب لا تنسى

رواية

دار الآداب

لينا هويان الحسن

الذئاب لا تنسى

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

لروحك ياسر..

لعلّ الكلمات تصل.. هناك حيث

الحمائم تلقي بظلالها العالية, فوق قبرك!

١ تموز ٢٠١٢

انتصبت شاهدة قبر في قلبي، إلى الأبد.

إنَّها وحوش التذكُّر، دفعتني لأقتلها على أرض الكلمات. ملأتُ كلَ هذا الورق لعلَه يشفيني قليلًا من الحزن. قُتِلَ شقيقي، خلال الأحداث السوريَّة الأخيرة البائسة، ولأنَّ الذاكرة تتقلّب بين ظلالها كحيوان نائم في ليل الشتاء، حضرت حكايات الماضي مع ياسر، واشتبكت اللُّغة والكلمات على تخوم روايات شخوصها من دم ولحم؛ لكنَّهم، الآن، أرواح بلا أجنحة، غفلة تحطّ على كتفك وتهمس: أكتب.. كتبتُ ومن بين أسنان الماضي استدعيت حكايات كثيرة، من بينها حكايات النساء القتيلات باسم «الشرف»، مدفونات في المغائر الرومانيَّة، التي تشكِّل ملمحًا واضحًا في تضاريس وخارطة البادية السوريَّة الوسطى التي نشأتُ فيها. عندما عرفت الشابّة الجميلة «ونسة الأيزيديَّة»، التي تعبد «تاووسا ملكيَ»، لم أعرف أنِّي سأكون مدوِّنة لحياتها القصيرة. بينما لم يتسنَّ لي قط رؤية الخاتون عمشة، لأنَّها قُتلت قبل زمن طويل من ولادتي، وهنا حاولت رسم ملامحها المحتملة..

ـ ١ ـ

«يا ذيب ليش تعوي.. حالك مثل حالي»

أغنية بدوية قديمة

يقولون إنَّ للذئاب ذاكرة، وإنَّها لاتنسى، لهذا تعوي.. وتعوي حتى تتوارى آخر الكلمات.

الحزن جعل بعض الحيوان ينتحب! إحدى أكثر الصور إلحاحًا، بينما يتناهى إلى سمعي صوت خالتي وهي تندب شقيقي: «ما أسلاك لو الذيب سلا»، رثاء بدويّ أصيل. تبلغ سمعي أصداء ضربات نبض الذئب المحموم، وهو يعوي، يسعى وراء النسيان، وهذا المستحيل بعينه. ما من ذئب سيفلح بتحرير نفسه من ذاكرته.

«خَلَف»، راعي الأغنام عند جدّتي، والذي مات منذ زمن طويل، كان يعرف كلّ أسباب عواء الذئاب. يفهم إيقاعه، من طوله، وتقطعه، وقصره.

أحيانًا، كان يقول: هذه العواءات الجماعيّة المتقطّعة، عواءات جماعة تريد أن تُرهب المخلوقات الأخرى التي حولها. وتلك العواءات المتواصلة لكن قصيرة، ذئاب تتبادل الرسائل، تتّفق على خطة صيد.

هذا العواء القصير عواء ذئب يغازل ذئبة.

هذا العواء الطويل لذئب ماتت أنثاه.

وذات مرّة، كان العواء أكثر من طويل.. كان مديدًا، صَاحبَ كلّ ساعات الليل..

قال خَلَف، يومها، بعينين شاردتين في عتمة الصحراء: هذا عواء ذئبة فَقَدَت وليدها.

لم أحدس وقتها لماذا استوقفني ذلك العواء، لماذا انحفر في أذنيّ.. أتذكّره كما لو أنّه لم ينقطع قط.

كان عزفًا منفردًا، متوحّشًا، نائحًا، متعطّشًا للانتشار.

في مساء اليوم التالي، عاد خلف ووراءه القطيع، يسبقه كلبه الذي اتّجه صوب بقعة تكوّمت فيها بقايا برغل مطبوخ بمرق اللّحم، بينما ذهب خَلَف إلى مكانه المعتاد قريبًا من «الحوفيّة»، حيث تقدّم له جدّتي طعامه. بقنوط، روى خلف لجدّتي عن ذئب صغير اصطاده صيّاد حضريّ جاء من مدينة حلب. جال طوال الليل حوله متباهيًا بصيده، وصباحًا أخذه معه إلى حلب، بعد أن لفّه بكيس من النايلون وأحاطه بالثلج.

كان تواطؤ خَلَف مع تلك الذئبة مفضوحًا، رغم أنّه يسهر معظم ليالي الشتاء ليحمي حملانه من براثنها. إنّها ذئبة معروفة في بادية قصر

ابن وردان، اشتهرت بشراستها وذكائها بمخادعة الرعاة وخطف الحملان الصغيرة. لسنوات طويلة أرّقت ليل الرعاة.

حلّ اللّيل مجدّدًا. ملأ عواء ذئبة ابن وردان هواء الصحراء، جميعنا تنشّقنا حزنها.

للحزن رائحة! تلك الليلة، لم تأت أيّ من الفتيات للسهر قرب نار جدّتي. لم يثرثر أحد، بينما العواء يرجّع صدى أوجاع الجحيم، الحزن جحيم، الحزن جهنم التي لا ترحم.

بعد ثلاثين سنة، كنتُ هناك على الشرفة أحمل المنظار العسكريّ اللّعين، وأراقب الطرقات الأربع اللّعينة، والهجوم اللّعين.. كلّ شيء كان ملعونًا بالحزن والخوف، والقنوط.

يناديني وائل بصوت خفيض: انزلي.. الشاي جاهز.

الذئبة الحزينة.. صورتها أمامي تنشر يديها أمام عينيها، تدلّي رأسها قبالة سماء محايدة لا تكترث بالعواء الذي يسمّ حتى الهواء..وتعوي الذئبة.

أرمي المنظار، أتركه على طاولة السفرة الفاخرة التي لم نأكل عليها قط. أنزل حافية وأخرج للشرفة الأرضيّة، يسحب وائل لي كرسيًا، وأجلس قبالة شجرة سرو شامخة، وحيدة منفردة، صلبة، تنتصب كرمح. زرعتها يومًا أنامل ياسر.

ياسر، مااات؟!! أقول ذلك لنفسي، لعليّ أصدّق أنّه مات.

أشرب الشاي، وأستغرق في سماع نحيب تلك الذئبة الذي استوقفني وأنا طفلة، قبل أكثر من ثلاثين سنة، حتى جاءت اللّحظة وعرفت كم سيشبه «عواؤها»، « بكاء» أمّي، وأنينها الذي يرافق حتى لحظات غفوها.

•••

الذئاب لا تنسى، أيضًا لا تخون بعضها. الخيانة ميزتنا نحن البشر. الخيانات، لنا. السبب المفضّل للأدب هو «الخيانة»، تبدو كناموس مرتحل يدفعنا لخيانة: «الأغلبية، الكلّ، الجميع». علينا أن نكون بالنسبة للآخرين: «خونتهم»، لنكتب.

لا أنتمي لعالم «الإخلاص»، لأنّ الأخلاق تفرضه علينا كمدرسة لها

عسسها الذين يراقبون ويطلقون الأحكام، ولها سدنتها الذين يحرسونها. الأدب لا يمكنه التغزُّل بتلك الأشياء المحروسة، لأنَّ الأدب انتهاك، وقتل، وفضح، وتحرير.. لهذا أكتب هذا النص.

أكتب «هنا»، لعلّي أفقد هويَّتي، انتمائي، أنسى عشيرتي، اسمي في الأوراق الثبوتيَّة.. ربما عليّ أن أفتك بكلّ الوجوه المحتملة لي، لأكتب روايتي هذه، وأنا أحمل ملامحَ وجه جديد.

أكتب لكم من بلاد بعيدة، ليست سهولها المقفرة أقلّ بالنسبة إليَّ من نجوم ليلها المشغة.

أرض لم تكن، يومًا، مشهدًا يتَّفق مع أذواق المتمدّنين. هنا الشمس ضوءٌ وحشيٌّ يلتهم كلّ شيء، ويهضم كلّ شيء. وكلّ من أنجبته هذه الأرض سيظلّ المستوحش الغريب بين الناس..

أرض مكانها في خارطة نائية، ما بين العصور السحيقة والقرن الواحد والعشرين، بين غبار سنابك الزير سالم وقَتَلَة اليوم. يشدُّني إليها خيطٌ لامرئي، يرقد نائمًا كحيّة لا تموت.

أكتب لكم من أرض ليست صحراء تمامًا، لكنْ لها رائحة الصحراء، لأنَّها شقيقتها التي تشبهها كثيرًا: إنَّها البادية.

أرض، أهلها يقولون السيف الراقد دائمًا في غمده يصدأ. ها هي السيوف خرجت لتقتل، أيضًا السواطير والسكاكين.

نُقتل هنا، باسم «اللّـه»! جلّادو السلطة تحالفوا مع أفّاقي الدين، كالعادة، لتفنى الشعوب.

ينبشون الكتب، ويستحضرون كلّ ما يمكن أن يزيد في فتنة القتل. اللُّغة تقتلنا. سلاح شامل نتقاتل به. لغة القردة في الغابات أكثر نبلًا ونظافة من لغتنا التي تخدع.

هل أصرخ في وجه اللُّغة التي حوَّلوها إلى أديان وأحزاب وسياسات لتكون سلاحًا لقتل الآخر واغتياله لمجرَّد أنَّه يختلف عنك؟! أم أكتب وحسب؟ أفكّر بما أنوي تدوينه، وأنا محجّبة ومسربلة بالأسود من رأسي إلى قدميّ. أقطع رحلة صوب مسقط رأسي، حيث دُفن أخي.

يحاصرني التاريخ.. نقطع أرضًا سكنها الكنعانيُّون والآراميُّون، والقبائل العربيَّة القادمة من اليمن، ومرّ عليها الإغريق والرومان والبيزنطيُّون والمسلمون. كلّ بضعة أمتار نقطعها، تختبئ في ثناياها

عملات مختلفة، متفاوتة القدم، بعضها سُكّت عليها صورة جانبيّة للاسكندر المقدوني، وأخرى عليها بطليموس، أو صورة لأحد تماثيل زيوس كبير آلهة الإغريق، أو ابنته ربة الحكمة أثينا؛ وعملات أخرى كُتب عليها «لا إله إلّا اللّـه، محمّد رسول اللّـه». وفي جوف الأرض ينام أكثر من إله، آلهة، ورفات ملوك وقبور أميرات مُثنّ بكامل زينتهن، آلهة حُطّمت، لأنّ زمانها أفل.

شهدتُ على نبش قبور أميرات رومانيّات، دُفنّ مع حليّهنّ وأوانيهنّ وثيابهنّ. وكُشف عن تماثيل مصدّعة، كانوا آلهة حكموا أزمانهم. تنتهي كلّ الآلهة في هذا المكان، تمامًا كما الأميرات الميّتات. كلّ يوم يعثر الرعاة على دمى فخاريّة وخزفيّات زجاجيّة، كانت ذات زمن تُقدّم كرشوة للآلهة، وتسمّى: قرابين.

كان ثمّة بشر يصنعون أكثر الأشياء جمالًا قرابين يقدّمونها لإله مجهول، ومنذ ذلك الوقت كفّ الإله عن أن يكون فولكلورًا، أصبح طاغية.

يا لترف الآلهة! توقيت مبكّر منحه التاريخ للآلهة لتمتلك كلّ هذه المعابد والقرابين والصلوات والعبادات والتضحيات وكلّ أولئك الذين ينطقون نيابة عنها، يا للطغيان!

ـ ٢ ـ

«يا ذيب يا مجفّل الغزلان»

ياسر مات..

صرخت وصرخت وصرخت.

الصرخة! لولاها لبقي كلّ شيء صامتًا، يضربنا الألم وتنفجر أقدم آه استخدمها البشر, منذ ذلك الوقت الذي استخدموا فيه أصواتهم مثل الحيوانات. إنّها صرختي المطلقة، صرخة غوريللا متوحّشة في دغل لم يدخله إنسان.

طريق دمشق ـ حمص..

طمأنينتي؟! مجروحة. جرحها الخوف دون رحمة. غدوت مفتضحة بتلعثمي ويأسي، في لحظة تغدو الحياة مثل سفينة فقدت صاريها.. ظلّت تترنّح في عرض البحر، لم تغرق، ولم تصل برّ الأمان.

أنا المغرمة العتيقة بالدروب، ورثتُ عن أسلافي البدو غرامهم بشقّ الطرقات الجديدة.

ها أنا أعبر الطريق ذاته الذي عبره ألوف السوريّين صوب الحزن.

مثل صورة من فيلم صامت: الجميع حزانى، وكلّ الكلمات التي يمكن أن تُقال ترتجف على شفاه جافّة. أنا، وهم، بدونا مثل بقايا أصداف همشّمتها موجة مفاجئة.

قبل سفري، ذهبت لشراء ثياب الحزن، رغم أنّ خزانتي محشوّة بهذا اللّون، لكنّي لم أحسب حسابًا لثياب سوداء مخصّصة للجداد.

اندلعت الأحداث في وطني، وقاومتُ إغراء أن أكون من زمرة الأبطال، نحن نعرف ما الذي يحدث للأبطال، إنّهم يموتون، يُقتلون.الجبناء لهم الأرض كلُّها. نار البطل يخنقها طين الجبان، الأبطال يموتون لأنّهم أبطال التذكُّر، فهم لا ينسون! كونوا أذكياء وتخلّصوا من «بطوليّتكم».. شقيقي لم يفكّر بالبطولة مطلقًا، لكنّه مات!!

أنا محجّبة! أختبئ، أتنكّر! أم أحمي نفسي!؟ لم يتركوا لنا خيارات غير هذا الأسود البائس.

لا يمكن قطع الطريق بين دمشق والقرية إلّا بالحجاب، إنّه الشرط الأوّل لأمان مبدئيّ، على الأقلّ، حتى يتجنّبك رصاص القناصة، كما أخبرنا السائق. لكن، أيّ قناصة؟! هم كثر، كما علمنا، ويتبعون لكلّ الجهات. فالموت، كما الريح، عندما يعصف يهبّ من كلّ الجهات.

الرصاص أوقف سير البولمان مرّة أخرى، والسير خلفه توقّف أيضًا. الجميع خفضوا رؤوسهم تلقائيًا، كنت أجلس في المقعد الأوّل خلف السائق ومعاونه، حتى لو خفضت رأسي فأنا في مرمى الرصاص. انشغلتُ بالالتفات للكرسيَّين خلفي، تمامًا حيث يجلس شقيقاي مرام ووائل، أطمئنّ إلى أنّهما خفضا رأسيهما. لم أزل الأخت الكبرى، وبشكل عفويٍّ أمارس نوعًا من الوصاية التي ينفر منها كلّ الأخوة الأصغر سنًّا.

عشرون دقيقة مرّت، هدأ صوت الرصاص، وأصبح متقطّعًا، وبعيدًا بعض الشيء. تحرّك السير. السؤال الذي فرض نفسه، وغدا واضحًا: ماذا ينتظرنا في الأمام، ونحن لم نزل بعد على تخوم منطقة عدرا؟! يرنّ جوّالي، أسمع صوت باسل، شقيقنا الأصغر، وهو محاصر بالرصاص في كراج البولمانات في حرستا. اختزلت أمنياتي في الحياة إلى أمنية واحدة، أن يتوقّف الرصاص على الأقلّ لحين انطلاق البولمان الأخير المتّجه إلى السعودية، على الأقل نضمن فردًا من العائلة، خارج هذا الجحيم. في الوقت نفسه توقّف الرصاص على طريق عدرا، وأكملنا الرحلة.. وكذلك انطلق البولمان المغادر إلى السعودية.

معاون السائق اجتهد في إخفاء توتُّره عبر صبّ الماء والقهوة للمسافرين، محتالًا على أعصابه التالفة وأعصاب الركاب المتوتِّرة.

وصلنا إحدى الاستراحات القليلة التي لم تزل تفتح أبوابها قبيل المدينة المنكوبة «حمص». يسبقني وائل ويعطيني ذراعه، أتعثّر بالعباءة، كطفل تعلّم المشي للتوّ. يباغتني «لطف» النادل في الاستراحة، وهو يعدّد لي أنواع السندويتش، بينما اختفت كلّ النكهات من فمي، فقط المرارة، أشعر بها متكتّلة في حنجرتي. وائل يأخذ دوره كطبيب، ويلحّ عليّ بضرورة أن آكل شيئًا تجنُّبًا لهبوطٍ مفاجئ بالضغط، مبرّرًا: الحزن مع الجوع(!) كارثة صحّيّة. أتلفّت حولي وقد استفزني هدوء المقابر الذي خُيّم على المكان، كلّ المسافرين محزونون.

أرتبك بطريقة التعامل مع حجابي الجديد. للحظة، ألمح طائرًا صغيرًا أكبر من العصفور بقليل يحلّق فوق المكان، أردت أن أقول شيئًا لوائل عن أمنيتي في تلك اللّحظة: لو كنت عصفورًا وحسب. حاولت أن أزيح الحجر الضخم الرابض على حنجرتي، أو أن تخرج الحروف من حلقي المحروث بالبكاء. لا أجيد التعامل مع الدبّوس الذي يُفترض به أن يثبّت الحجاب. بدت مرام أكثر انسجامًا مع العباءة السوداء.

لا أخلع النظّارات، أبلُّ ريقي ببعض الشاي في استراحة على مشارف

مدينة حمص التي تهدّم أكثر من نصفها.. وائل يدخّن سيجارته، لحقتُ به إلى الشرفة، ومددتُ له إصبعين مرتجفين إشارة إلى أنّني أريد سيجارة. لم أكن يومًا من المدخّنين. لا بأس بسيجارة، لعلّي أنفثُ شيئًا من البكاء المتجمّد في حنجرتي.

لا يُعلَن بمكبّر الصوت عن انتهاء مهلة الاستراحة. انتهت الدقائق العشر، واتّجه جميع المسافرين بهدوء فظيع صوب البولمان. تعثّرتُ بطرف العباءة وأنا أصعد، كانت ذراعا كلّ من وائل ومرام قريبتين، بحيث وصلتُ إلى مقعدي دون تعثّر. تحرّك البولمان، بدأ معاون السائق بإرخاء ستائر النوافذ مع تحذيرات قويّة بعدم النظر من النوافذ أو إزاحة الستائر، مبرّرًا ذلك بتجنّب رصاص القناصة. بينما سمعت بعض الأصوات الهامسة تقول إنّ ذلك تعليمات أمنيّة، تجنّبًا لالتقاط صور للدمار الذي يتجاهله التلفزيون المحلّي.

يقترب البولمان من حمص، يمكنني أن أحسب المسافة غيبًا، لطريق قطعتها عشرات المرّات في رحلات موسميّة صوب قريتنا البعيدة في الرّيف الشرقيّ لمدينة حماة، رغم أنّ التسمية الأدقّ، «البادية الشرقيّة لحماة»، لكنّ الحكومة تخاف من فكرة «البادية والبدو والأعراب». لطالما تجنّبوا مثل هذه التسميات. خلال دراستي الجامعيّة عندما كنت أقول لزملائي إنّي «من العشائر»، تنطلق ضحكات الاستنكار، والاستهجان. فجميع زملائي كانوا على قناعة أنّه لا عشائرَ في سوريّة. فإمّا مدنيّون، أو قرويّون فلّاحون. لكنْ، أن يأتي أحد من البدو فهذا غريب وغير معقول وأمر غرائبيّ.

أسترقُ نظرة من تحت الستارة، وتجرحني لافتة زرقاء كُتب عليها: حمص.

تبزغ حمص وسط طريق من اللّهب، وتهجم على مخيّلتي قنطرة جسر لا أراه الآن، لأنّنا لن ندخل حمص هذه المرّة. كُتِبَ على القنطرة بيتٌ شعريٌّ لنسيب عريضة، الشاعر الذي هاجر إلى أميركا اللّاتينيّة، وأنشد يقول: «عُد بي إلى حمص ولو حشو الكفن..» لم تتحقّق أمنية نسيب عريضة، لكنّ ياسر مرّ قريبًا من حمص «حشو الكفن» ـ المدينة التي فضّلها على دمشق، وقرّر أن يسكنها مع عائلته الصغيرة.

خطفوا ياسر من مكان عمله لماذا؟! لأجل طلب فدية. عندما تحوّلت سوريّة فجأة إلى جحيم، هنالك من ثار على قمع أربعين سنة، وهنالك من كان جاهزًا لامتطاء الموجة واستثمار «الثورة»، وتحوّلت بلدنا إلى سعير لا

يُطاق، تحديدًا عندما قرّر «الثوّار» أنّ كلّ موظفي الدولة هم أعداء لهم! وتفخّخت سوريّة بجماعات مسلّحة تختبئ وراء يافطة «الحرية» لتمويه عمليات الابتزاز والخطف.

ذنب ياسر أنّه كان موظّفًا في الدولة. هجموا على مكان عمله في مدينة «صدد» ليلًا، ضُرب. ضُرِبَ وهو نائم، غدرًا، بأخمص البارودة على رأسه، كذلك فعلوا مع زملائه. كان مدمًى ومغمى عليه عندما أوثقوه وربطوا يديه ورجليه، ووضعوه في المقعد الخلفيّ للسيّارة. وانطلقوا في رحلة عبر جبال القلمون للوصول إلى معسكرٍ يرفع «الحريّة» لافتةً وشعارًا!

معاون السائق الذي انتبه لبكائي المكتوم ولعينيّ المتورّمتين، بعد عدّة أيّام، صرفتها في البكاء، ملأ لي كأسًا بلاستيكيًّا بالشاي، كان يحتفظ به ساخنًا في ترمس خاصّ به وبالسائق. المعاون كان صامتًا وحزينًا. والأدقّ، أنّه بدا معتادًا على حالات بكاء المسافرين. فالبكاء أصبح المتنفّس الوحيد للسوريّين. كلّ السوريّين يبكون. لا استثناءات.. البكاء قدرنا.

يستقرّ في أذنيّ عواء الذئبة الحزينة قبل ثلاثين سنة. يا لهشاشة خطاباتنا، وأشعارنا، أمام عواء ذئب! لدى الجميع خطاباتهم، رئيس دولة ورئيس الحزب وإمام الجامع. للحيوانات تلك اللُّغة التي تتكلّم بالفعل، بينما نحن البشر نتكلّم لنخفي الحقيقة، نتكلّم دون أن نقول شيئًا.اللُّغة خديعة كبرى، أفكّر بكلّ ذلك وأنا أستمع للسائق وهو يدلي برأيه السياسيّ الذي تحوّل سريعًا إلى خطاب حماسيّ.

لأنّ هناك أشياء لا يمكن أن نكتبها، يتعمّق الجرح، ويتلاشى نهائيًّا مئي ذلك الجزء الذي مات مع موت شقيقي. تتأجّج نقمتي على أولئك الذين جرحوا هذا الوطن وجرجروه في الوحل. من هم؟ لن يعترف أحد، جميعهم يرفعون لافتة البراءة.

إنّه عواء الماضي.. يسمّمنا جميعًا في النهاية. هذا السمّ المتجوّل الأبديّ فينا، سمّ الطوائف، سيقتلنا ويمحونا من الوجود. الجميع يقتل وهو يصيح من أجل الوطن.

خرجت من قفص الذاكرة الشابّة الجميلة «ونسة»، الفتاة الأيزيديّة التي هربت من طائفتها قبل حوالى ثلاثين عامًا، لتتزوّج شابًّا بدويًّا، التجأت إلى كنف عمّي، وهناك قابلتها. كانت تحدّثني عن ربّها المعبود الذي تسمّيه «تاووسا ملكيّ»، وتشرح لي أنّه «ملك طاووس». يومها سألت جدّتي لماذا نحن نعبد «اللّـه» وونسة تعبد «تاووسا ملكيّ»؟ جدّتي قالت

دونما تفكير: «ليس المهمّ من نعبده، المهمّ كيف نعبده، البشر يعبدون أحدًا في السماء ليصبحوا أفضل! علينا فقط أن نكون أفضل لنكون مؤمنين». وبعد سنة واحدة من إقامتي المؤقتة مع جدّتي في البادية وبسبب ظروف أبي العسكريّة، كان علينا أن نسكن في قرية قريبة من حمص، القرية كانت كلّها مسيحيّة. وعندما أبلغت معلّمتي في الصفّ، لأبي حيرتها، كيف تحدّد لي علامتي المدرسيّة في التربية الدينيّة، أخبرها بكلّ بساطة: فلتدرس المسيحيّة. هكذا كنت أرسم شارة الصليب قبل الأكل، بينما أتناول طعام الإفطار في رمضان مع أمي.

البشر مفطورون على حبّ الاختلاف، وإلّا كيف لنا أن نفسّر كلّ هذه الهويّات التي خلّفتها لعبة الأصول، والأديان، هويّات مصطنعة وبعضها ملفّق، وفي النهاية جميعها هويّات قاتلة.

انتهت التحويلة. لم يُتح لي استراق النظر صوب حمص، التي كانت على يمين البولمان، واستأنف البولمان طريقه شرقًا صوب مدينة السلمية المتاخمة للصحراء.

عند حاجز بلدة «المختاريّة» توقّفنا. كان الحاجز للجيش النظامي. أزحتُ الستارة قليلًا، أوّل شيء لمحته كان فوّهة الدبابة التي حُفِرَ لها في الأرض مخابئ، بحيث بدت أخفض من مستوى الطريق، الفوّهة قريبة جدًا من نافذتي، وفي البعد حيث خمّنت أنّها منطقة «تلبيسيّة». كانت أعمدة الدخان تصل الأرض بالسماء، بينما أصوات القصف ترجُّ الأرض تحتنا، البولمان يهتزّ بدوره، يتلقّى الهزّات الارتداديّة للقصف، أحد الشبّان المسافرين معنا تمّ جزّه بصمت، أخرجوه من البولمان، جميع المسافرين راقبوه بنظرات حزينة، لا أحد يعرف ماذا سيكون مصيره، ولم يجرؤ أحد منّا على إزاحة الستارة سنتيمترًا واحدًا، لمتابعة ما يحدث لذلك الشاب، الذي على الأرجح لن يراه أحد بعد الآن. الاختفاء في وطني قدر للكثيرين.

تحرّك البولمان، بعد أن مزّت «هويّات» المسافرين على الضابط المناوب على الحاجز.

كان الوقت قد قارب الثانية عشرة ظهرًا، عندما بدأت ملامح التضاريس تتغيّر، شيئًا فشيئًا تتخفّف الأرض من الأشجار، ويتلاشى الغطاء الأخضر، وينوب عنها ذلك اللّون الغباريّ الصحراويّ، دون أن يخلو من اللّون الأخضر الذي تجسّد في أشجار زيتون تناثرت بانتظام، مزروعة ضمن دونمات قليلة بمزارع مربّعة الشّكل.

راحت الطبيعة تأخذ تلك الهيئة الأثيرة إلى قلبي، القلب لا يهوى شيئًا دون أن يتواطأ مع الذاكرة. لمحتُ تلك الأمداء الواسعة، دبّ في ذلك الشعور الآسر الذي يعرفه كلّ من يعود إلى وطنه. تذكّرت حديثي عبر الفيسبوك قبل أيّام مع معارض سوريّ هرب إلى المنفى قبل ثلاثين سنة، حدّثني عن أمنيته الوحيدة: «أن أعود إلى تراب قريتي، أموت هناك، أدفن هناك، ويأكلني دودها».

هل هو ذكاء لغتنا العربيّة الذي سَمَحَ بتسمية تلك القرى البعيدة: «الضيعة»، منطقي جدًا اشتقاق هذه التسمية من مفردة «الضَيَاع». وضيعتي اسم على مسمًى. بعيدة على هامش البادية، وأيضًا على هامش السهول والهضاب المتماوجة شمال شرق مدينة حماة.. نصف الطريق معبّد برداءة فظيعة، ونصفه الآخر غير معبد مطلقًا. فقط شريط ملتوٍ بمزاجيّة بدويٍّ عتيق، ولا يمكن للسّيارة التي تسلكه أن تزيد من سرعتها، ستدور العجلات ببطء فقط ويتكدّس الغبار حولك ووراءك وأمامك، وستقاوم الاختناق بحلم الوصول والاستحمام.

اقتربنا من مدينة «السلميّة»، ركَضت هزة الذاكرة بذيل مشتعل، اشعلت النار في هشيمي. عادت الدموع التي أخفتها النظّارة، كتمت البكاء. يمكن للقدر أن يحرّك بضعة دروب فتختلط الاتّجاهات، وأعيش الحيرة، تتطاير الأوراق.. هل أنا كاتبة فعلًا؟!

عندما تكون حزينًا ستصاب ذاكرتك بالعناد، بعناد بغل، ستعرض لك وجه التاريخ المعتم.

ياسر رحل. ترك لنا الذكريات الطيّبة، وخمسة أبناء بينهم فتاة، وأمّهم الحزينة إلى الأبد.

ياسر المرح الضحوك، المغرم بتقليد الآخرين، الذي يحوّل أبسط حادثة لمناسبة للضحك، لن يضحك بعد الآن، هل ترك لي بعض الضحك؟!

يعبر البولمان مدخل «السلميّة»، وأنا أتساءل: هل سأضحك يومًا؟!

بدت الشوارع وقت الظهيرة شبه فارغة، إلّا من بضع سيّارات، من تلك التي لا يقتنيها غير أبناء العشائر، بيك آب، كيا، شفروليه، تويوتا..

يتقلّص الوقت في تلك الظهيرة الحزينة، نقف نحن وحقائبنا بانتظار «يونس»، ابن عمّي الذي يُفترض به ملاقاتنا في سيّارة مستأجرة لتقلّنا حوالى أربعين كم شمالًا.

تعاني المدينة من فقدٍ للتغطية اللّازمة للمكالمات الخلويّة، وعلينا الانتظار حيث نحن. وائل لجأ لسيجارته، مرام تتلفّت بقلق غزالة يحاصرها السراب. وحدي يشغلني «الخوف». يزعزعني القلق. يربكني الحزن الدَبِق. أبي حذّرنا من المجيء، فالطرقات خطرة.. غدت الدروب معبّدة للموت أكثر من أيّ وقت مضى.

بسبب ملابسات موت ياسر، لم يتح لي حضور دفنه، ولا معانقة قبره.

تزاحمت في رأسي الذكريات الشاردة التي تأتي بحثًا عن مأوى في هذا الرأس الذي تضربه الريح، ريح التشتُّت.

رغم أنّنا نقف في قلب المدينة، لكنّني لمحت عن بُعد العجاج، دوامات الغبار والأفق الصحراويّ الذي لا نهاية له.. إنّنا في البادية، و مرور رجل بلباسه البدويّ ينقلنا، في اللّحظة نفسها، إلى بادية البدايات.

•••

قبل أسبوع من الآن، استيقظت أمّي صباحًا، وفي قلبها نار أوقدها قلق غامض، طَلَبت ياسر، رنّ جوّاله دون أن يجيب أحد. لم تنتظر دموعها ولا ثانية، سيل من الدمع انهمر، أعلنت بإحساس لا تملكه المرأة إلّا عندما تكون أمًّا: ياسر ليس بخير، ياسر أصابه خطب ما.. لم ننجح في تهدئة خواطرها، عندما أعدنا الاتّصال كان الهاتف قد أغلق وأصبح خارج التغطية. رنّ الهاتف الأرضيّ ليكون أبي، ويخبرنا: ياسر خُطِف.

للفور، بدأتْ برشّ سيل من تطمينات أعرف أنّها كاذبة، لكنّي لم أعثر على طريقة أخرى لتهدئتها غير بضع أكاذيب رميتُها على مسامعها، حول: «نبالة الجيش الحرّ»!، بينما في صميمي ثقة صوت عميق لا أعرف مصدره، همس لي دون كلمات أو صوت: «هذا هو لقاؤنا مع الموت».

مرّ النهار ونحن ننتظر مكالمة من الخاطفين، لعلّهم يتّصلون ويطلبون مبلغًا ماليًا لتمويل حربهم لأجل «حريّتهم المنشودة». القلق يملأ بيتنا مثل كلب مسعور ينبح في وجه الضباب. مكالمات لا تنتهي مع كلّ معارفنا، معارضون، موالون، ضباط. يهبط المساء ويسود ليلٌ بلا نهاية، دون أن تأتي المكالمة المنتظرة. الأمل كسنّ مخلوعة. أبي عقب تقاعده من الجيش، اعتاد أن يقضي مع أمّي معظم أيّام السنة بمزرعتنا في القرية، كان بعيدًا عن دمشق حوالى ٣٤٠ كم، كان يكلّمنا كلّ ساعة تقريبًا، لكنْ، لا أخبار جديدة.

سهل جدًا أن نموت، وصعب جدًا أن نحيا.

العباءة السوداء والحجاب والنظّارات، كلُّها أشياء زادت في اختناقي، وارتفع معدَّلُ قلقي في تلك الظهيرة البائسة على قارعة الطريق الرئيسيّ الذي يشكّل مدخلًا لمدينة السلميّة، مرّت نصف ساعة مريبة، لم يظهر يونس. هاجت الأسئلة المقلقة، انقطاع الاتّصالات في تلك المنطقة الصحراويّة، سَمَحَ بحدوث أشنع الجرائم، وللحظة شعرتُ بالندم لمجيئنا، لكنَّ القرار كان قد اتُّخذ بشكل جماعيّ: «أنا، مرام، ووائل» سنكون قرب أبي وأمّي، وكذلك زوجة أخي المنكوبة بموت زوجها وأب أولادها الخمسة الذين غادروا حمص قبل سنة، بعد أن سقطت قذيفة في صالون منزلهم. غادروا حمص وقطنوا في المزرعة، ولحق الموت بتلك القذيفة وخطف أباهم.

الحزن كان وسيلة نقلنا إلى هذه الصحراء، حيث تبحث عن دموع تشبه دموعك.

عندما تكون خائفًا، سيلعب اليأس بأعطال الأمل ويتسيّد الموقف. ظهر يونس أخيرًا، كان ينتظرنا في مكان آخر، قريب، حيث ظنّ أنّه يمكن للبولمان أن يُنزل ركّابه. التقينا، تبادلنا كلمات التعازي المعتادة. مع دموع متناثرة، ووضعنا حقائبنا في «السرفيس» المستأجر، لم يجرؤ أبي على إرسال سيّارته لثقلنا، فالمرسيدس البيضاء كانت معروفة في كلّ المنطقة: إنّها للعميد هويان.

منذ عدة أشهر، لم تتحرّك السيّارة خارج المزرعة. أبي الضابط سابقًا، والمتقاعد من الجيش منذ حوالى ثماني سنوات، كان مُطالبًا بالانشقاق! بين وقتٍ وآخر، تصله رسالة خبيثة من ضابط «منشق» برتبة صغيرة وأخلاق أصغر، رسالة تطالبه بالانشقاق، فيردّ أبي متسائلًا: أنشقّ؟! وأنا متقاعد؟! في نهاية الستينيّات من عمره، ثمّة من يطالبه بالالتحاق بجبهة جديدة، تحدّد عدوَّها وفقًا لأجندات وحده اللّـه يعلم مَنْ وراءها!!

انطلق «السرفيس» خارجًا بنا من السلميّة، متّجهًا شمالًا حيث ديرة الشمبل، تلك الأرض التي طالما ألهمتني كتابة الروايات.

على حافتي الطريق، انتشر نبات عبّاد الشمس. النبات الذي يتبع الشمس كأعمى لا يبصر غير الوهج، يشرئب على أطراف المساحات المزروعة بالذرة الصفراء، بينما تتراشق بضع شجيرات من التين المهملة، اعتادت البقاء وفق منطق البادية القفراء.

تأسر بصري أقراص عبّاد الشمس، تحيلني إلى لوحة فان كوغ الشهيرة.. أيّة حزيّة كانت لهذه الزهرة في أن لا تلحق الشمس، وأن لا تُسقى «عبّاد الشمس»؟

كذلك تبدو بعض الحقول المنزليّة المزروعة بالخضار. والسراب راح يوحّد الأفق بين سلاسل الجبال المنخفضة التي تلوح على يسارنا، وبقايا قلعة شامخة اسمها «شميميس» بدت واقفة مثل طائر مالك الحزين وقد ضلّ عن سربه.

كلّما لمحنا عن بُعد حاجزًا عسكريًا، دبّ القلق في نفوسنا، فنحن نعبر قرىً أهلها ينتمون لطائفة أخرى، وحجاباتنا ستبثُّ الريبة في أنفسهم، وربّما تحرّك العداوة التي صنعتها السياسة بإتقان عجيب.

يحادثني وائل، ليخفّف قلقي، عن الحواجز المختلفة التي عَبَرها مع ابن خالي «خالد» في رحلة بحثه عن جثة ياسر. وكيف أوقفهم حاجز «الجيش الحرّ» على مشارف بلدة يبرود، حيث ذُكرَ لنا أنّ المخطوفين عادة ما يعالجون في تلك المستشفى. كلّ مَنْ في المستشفى أنكر أنّ شابًا بمواصفات ياسر تمّت معالجته، أو جرى إسعافه قبل بضعة أيّام ـ الغاية المفاوضة على الجثة ـ لولا ذلك الطبيب الذي رأف لحال أخي، وربما بسبب تواطؤ زمالة المهنة أومأ له خفية ليراه في ركن خفيّ من المستشفى المراقبة بالكاميرات. اختصر علينا ذلك الطبيب متاهة المفاوضات الماليّة مع الخاطفين، كانوا يريدون بيعنا الجثة. أعطى الطبيب مواصفات دقيقة لياسر، وأكّد أنّه وصل ميّتًا في فجر أحد الأيّام الفائتة، شدّ على يديّ شقيقي، وهو يرى الدموع المبحرة في عينيّ أخٍ فقَدَ لتوّه كلّ أمل بالعثور على أخيه حيًا. وكان السؤال أين الجثة؟! تحوّل ياسر إلى جثّة نريدها بأي ثمن.

ياسر! كلّما ذُكر اسمك، مزّت رصاصة، رصاصة تخترق أحشائي، ذاكرتي، ووجداني، وأرقي.. ربما لهذا أكتب هذا النصّ الآن، لعلّ نقمتي تتقلّص ولو بضع سنتيمترات.

قبل أن نعثر على جثتك، كان ثمّة أمل متمرّد صغير في داخلي، يقول لي: إنّك ربما لم تزل حيًا، لهذا وحدي لم أصدّق أنّك متّ!

عقب يومين عصيبين على اختطافك جاء الخبر النهائي: ياسر مات!؟

كنتُ في دوامي في الجريدة، أجمع كلّ ما يمكنني عن طباع

«الجيش الحرّ» ومسالكهم في الخطف ودفع الفديات.. عندما اتّصل بي وائل، وقال لي بصوت مترجرج: «تعالي إلى البيت».

•••

وتعوي الذئبة عواءً حزًا، طليقًا..

بلحظة، أخفقت كلّ الدروب أن توصلني إلى هناك.. هناك الأرض التي يمرّ ليلها، بصحبة مسامرات الذئاب، ذئاب لا تنام، تعوي لتعيش الجِداد، تعوي تلتمس الخلاص وتطلق العواء إلى ذرى السماء! هل أخبر أحد الذئاب أنّ الطريق الحقيقيّ للخلاص يذهب إلى الأعماق، لا نغتسل من حزننا دون أن نرمي أنفسنا في أعماقنا السحيقة، في جحيمنا، لنولد من جديد. أيُها الذئب.. لا تراوغ الحزن بكلّ هذا العواء، أهبط إلى قاع جحيمك، خُض معركتك وحدك، لتنجو.

...

هناك.. حيث تلك الدروب التي اعتاد أبناء العشائر ارتيادها، وهم ملثّمون، يقودون سيّارات الشفروليه الحمراء الضخمة. لا يمكن للبدوي أن يقتني سيّارة لونها ليس أحمر. ثمة يقين شائع لديهم أنّ السيّارات الحمراء لا تغرز في الطين، فكلّ الطرق التي يسلكونها ترابيّة غير معبّدة بالإسفلت، وفي الشتاء تتحوّل الطرقات إلى فخاخ وحليّة، ووحدها الشفروليه الحمراء تنجو من تلك الفخاخ الطينيّة.

يمكن لأيّ منكم أن تكون له مدينته، حارته، ومقهاه، بينما أنا لي أماكن أخرى: ديرة، دروب ترابيّة أسلكها لتثير عجاجًا يموّه كلّ الدروب. أنتم تسلكون طرقًا معبّدة بالإسفلت نظّمتها لكم البلديّات أو الحكومات، بينما أنا أسلك دروبًا شقّها، ذات يوم، عمّي.

في المدن، يمكن لأيّ منكم أن يمرّ يوم عيد ميلاده وتغمره الهدايا: شوكولا، ألعاب....

لكنّ، ذات يوم حصلتُ على هدية مختلفة جدًا، أشكّ أنّ أحدًا حظي بمثلها.

حصلت على درب. اخترته أنا.

أن تحصل على درب لك، في أرض أجدادك، يعني أنّك ستحمل عبئًا من نوع خاصّ جدًا. يومها كنتُ في السابعة عشرة من عمري، وكان مساءً شتويًا تتخلّله زخّات مطر متقطّعة، عندما عدّل عمّي كوفيّته وأنزل زجاج

النوافذ، وقال لي: سأهديك دربًا..

لماذا؟

علينا أن نسلك الطرق التي داخلنا، طرقنا نحن، سنضيع إن سلكنا طرق الآخرين. طرقنا لا تضنينا. حالما نشعر بالإنهاك والخوف والعتمة، فنحن إذن سلكنا الطريق الخطأ. إنَّه طريق ليس لك، حالما يجذبنا أحد آخر إلى دربه، سنتيه، ويضيع الوقت، ونصرف حياتنا في عالم لم نخلق له.

.....

الأكيد أنَّ آثار عجلات الشفرولية بدت واضحة على الأرض المبلَّلة بالمطر، وبعدها اعتاد أبناء عمومتي أن يسلكوا ذلك الدرب لاختصار مسافة معقولة، وهم في طريقهم إلى المسالك الرئيسيَّة المؤدِّية إلى مدينتي حماة وسلميَّة. الأكيد أنَّ عمِّي يومها، لم يحزر أنِّي سأسلكه مع أشقَّائي في صيف عام ٢٠١٢ لندفن أخانا، «ياسر».

نقطع بضعة كيلومترات شمالًا، نقترب من قبر أخي، تتوغَّل بي الذاكرة في دغل الأيَّام الرهيبة التي مرَّت، فيما أنا على قناعة أنَّ ياسر لم يمت.

حدث أنَّ أبي قصد دمشق، ليكون معنا في محنة انتظار المكالمة من الخاطفين. مكالمة لم تأت. كان في منطقة النبك عندما حصل أخيرًا على رقم أحد زملاء ياسر من الذين خُطفوا معه، وقيل إنَّه قد تمَ الإفراج عنه لقاء فدية. طلب أبي الرقم، وردَّت الزوجة ولم تنتبه أنَّ المتكلِّم كان أبًا لياسر، اعتقدت أنَّه أحد الأصدقاء أو المعارف يسأل عن زوجها. قالت بكلّ براءة، وهي تسرد قصَة اختطاف زوجها، وكيف باع أشقاؤه في القرية أرضًا يملكونها لجمع المبلغ المطلوب، ولم تنس أن تقول أخيرًا: «يا خطيته رفيقو لجوزي، ياسر، مات».

كان أبي برفقة ابن خالي في سيَّارة من نوع «سكودا» متواضعة، تفاديًا لأطماع أفراد العصابات التي غدت منتشرة على أطراف الطرقات في معظم أنحاء سوريا. أقفل السمَّاعة، واستسلم لبكاء أب مفجوع، ثمَّ اتَّصل بنا لنلحق به إلى القرية حيث سيقام العزاء.

عاد أدراجه إلى القرية لينصب بيت الشَعر الأسود على الطريقة البدويَّة، لتقبُّل العزاء بياسر.

حالما عبرت بوّابة البناية، سمعتُ أصوات البكاء، عرفتُ أنَّ ثمَة خبرًا

أكيدًا بشأن ياسر.

يمكن لصرخة تفجُع واحدة أن تستأصل حنجرتك، ويتحوَّل البكاء إلى معاول تقلب أحشاءك.

كلّ اللياقات التي اخترعها البشر ستنسفها لحظة تلقّيك نبأ مقتل شقيقك. ستلطم صدرك، تضرب رأسك بالجدار، تتلوَّى على الأرض، النتيجة واحدة: ياسر مات. لكنْ، أين الجثة؟ كيف ستقيمون مجلس عزاء.. بينما ليس هناك قبر؟! وحدي طرحت ذلك السؤال، غادرت أمّي المفجوعة مع وائل ومرام، وأنا رمّمتُ أشلائي بفكرة أنّه طالما ليس هنالك جثة، لعلّ ياسر لم يمت. تركتهم يغادرون دمشق، وأنا بقيت وحدي في المنزل متشبّثة بفكرة أنّه يمكن لياسر أن يكون جريحًا مثلًا.

كنتُ وحدي، عندما استطعت التكلُّم أخيرًا مع ذلك الزميل الذي أفرج عنه الخاطفون، قالها لي بوضوح: يا أختي! ياسر أسلم الروح على كتفي، جميعنا ضُربنا بأخمص البندقية على رؤوسنا، نزفنا قليلًا ثمَّ صحوْنا. كانت أعيننا مغطاة، وأيدينا موثّقة وكذلك أرجلنا، كان ياسر ينزف على كتفي ولم يصحُ مثلنا، فسمعت أحدهم يتكلّم عبر الهاتف مع طرف آخر، لا بدّ أنّه كان ضابطًا، لأنّه كان يخاطبه بكلمة: «سيّدي»، سمعته يخبره أنّ ثمّة واحدًا من المخطوفين فَقَدَ وعيه، ونزيفه لم يتوقّف، يبدو أنّه تلقى أوامرَ بنقله إلى المستشفى، فسمعته يطلب من السائق نقله إلى مستشفى يبرود عبر طريق الجبال. أنزلونا في مكان ما بين الجبال، وتابعوا طريقهم بياسر صوب يبرود التي بدا أنّها قريبة من المعسكر الذي وضعونا فيه. بعد ثلاثة أيّام، أوصلونا للطريق العامّ الذاهب صوب حمص، بعد أن اتّصلو بأهالينا ودُفعت لهم المبالغ المطلوبة. عندما انتبهت إلى أنّ ياسر لم يكن بيننا سألتهم عنه، قالوا باستخفاف ولا مبالاة: أللّـه يرحمو..

«المستذلُّون، والمقهورون لن ينجحوا بشيء أكثر من الانتقام»، قال لي أحد زملائي في الجريدة، بعد أن لمس تعاطفي الكبير مع المظاهرات السلميّة في بداية الأحداث قبل أن يُغتال نبلاؤها، ويستلم أوغادها زمام الأمور، تمامًا كمصير كلُّ الثورات في العالم، وتتحوَّل حربًا قذرة، حربًا تريدها كلُّ الأطراف السياسيّة، حربًا تقتات على دماء كلّ السوريّين.

•••

حتى نهار الصحراء يمكن أن يسرِّب ذكرى عواء ذئبة حزينة ملأت الليل نواحًا.

إيقاع العواء المديد قبل ثلاثين سنة، يملأ أذنيّ، بينما القيظ على أشدّه، ونحن نقطع تلك الفلوات المتربة والصامتة.

الصمت، حكمة البادية المفضّلة. كلّ ما هو صامت مهين لغيره. الحياة تصمت، السماء تصمت، والأرض تُذلُّنا بصمتها، بينما تتركنا نثرثر إلى ما لانهاية.. نتوهّم جنانها وجهنّمها.. وتتيح لنا البكاء بحرّيّة مطلقة.

توقّفنا عند أوّل حاجز لدى مغادرتنا للسلميّة. بريبة كبيرة، نظر الضابط إلى بطاقاتنا الشخصيّة. اللّباس الذي يرتديه ابن عمّي والسائق، أيّ الثياب التقليديّة لأيّ بدويّ، والعباءات السوداء التي نرتديها أنا ومرام، مؤشّرات أوّليّة للريبة. أعاد لنا الضابط هويّاتنا الشخصيّة، بعد أن أبرز له وائل بطاقة تخصّ أبي تشير إلى أنّه «ضابط متقاعد». بينما تحرّك السائق وهو يقول: «يارب إلطف»، وراح يروي لنا حوادثَ مؤلمة عن سيّارات أثارت ريبة الحواجز النظاميّة فتلقّى من فيها مصيرًا قاسيًا، لا شيء يمنع تلك الفوّهات الموجّهة إلى الطريق من انطلاق نارها، بضعة جنود بالكاد التحقوا بالخدمة العسكريّة مع ضابط برتبة متواضعة غالبًا، وجدوا أنفسهم مرميّين في هذه الفيافي! بالكاد حفروا خندقًا سوّروه ببضعة أكياس مليئة بالتراب، تمنحهم وهمًا مؤقّتًا بالحماية، وكلّ سيّارة تلوح لهم في الأفق هي مشروع لانتحاريّ لا يتكلّم العربيّة، سيفجّر نفسه ليفنيهم.

وقعنا في شَرَك خيوطِ عنكبوتٍ من الأحقاد التي لا طائل منها. نقول عادة: «التاريخ يعيد نفسه»، لكنّه غالبًا ما يقوم بتبنّي الأوغاد ذاتهم لتخريب الأحلام الجميلة التي يملكها النبلاء.

كعادة البدو باجتراح الطرقات، سلكنا ذلك الدربَ الترابيّ الذي نعرفه نحن فقط أبناء العشيرة الواحدة، لنتجنّب الطرقات المعبّدة بالإسفلت التي يستبيحها الجميع، وتتوزّع عليها حواجز تنتمي لجهات وإيديولوجيّات وانتماءات مختلفة. القاسم المشترك بينها جميعًا: القتل. أبسط شيء القتل. والذي يبدو رحمة في أوقات كثيرة أمام جرائم أُخرى.

بدا «السرفيس»، فيما يقطع تلك الهضاب، مثل فأر يتبختر في قصر. النوافذ مفتوحة، الهواء الساخن يلفح وجوهنا. والخوف يحرق أعصابنا. لم أكن أتوقّع أنّ الوضع بتلك الخطورة، والسائق لم يؤجل الحكايا الرهيبة التي حدثت على مثل هذه الطرقات النائية. يمكن لأيّ سيّارة مع بضعة أوغاد مسلّحين، رصد أحد المنعطفات وافتعال حاجز مؤقّت بغاية السلب والنهب والقتل، والسيّارة ستكون قد تبرّجت بكلّ شعارات الحرّيّة والديمقراطيّة اللّازمة.

هواء تموز الحارّ والمتردّد يزيد من قلقي. ستلومنا أمّي، وفي عينيها نظرة العصافير الخائفة، ستقول لماذا جئتم؟ الوضع خطير، سأصمت، ولن أبوح لها بما سيزيد ألمها. بعد الموت يصبح لعيون الموتى بريق نجم متفجّر، نجمٍ مات، لكنّنا نرى بريقه العابر للزمن. ياسر، كيف سأشرح لأمّي؟ من يمكنه أن ينطق بكلمةٍ ملائمةٍ لتعزية أمٍّ؟ لأيّ أمٍّ فقدت ولدها؟ كيف يمكن أن نقول لها إنّ كلّ شيء صار منتهيًا، لا نملك من أثره إلّا قبرًا.

نحن الأحياء مثل البحار وقت العاصفة، يتخابط موجُها، وترغي وتزبد، بينما الأموات ساكنون مثل الجبال.

يزداد الطريق وعورة.. هنا كلُّ الطرق شعثاء، والسراب يتأجّج، كلُّ الآفاق يغطيها ثعبان السراب المتحرّك. حتى بعد اندثار الخرافات، تستمرّ إثارتها تحت شمس الظهيرة التي تذيب وجه الأرض، بينما السراب يلفّق ما يحلو له من أكاذيب، مع كذبته المفضّلة التي تتعلّق بالماء.

يتحدّث وائل وابن عمّي حول شيء ما. لا أسمعهما، بينما يتردّد صدى منسلّ لصوت ابنة عمّي، تجلس ونتحلّق حولها، يشاكسها ياسر، يطالبها بحكاية مليئة بالمردة والجان. تطاوعه فريال وهي تقرصه من خده تحبُّبًا، وتبدأ الخرافات بالتدفُّق. حيوانات كثيرة، من تلك التي تحيا في الأرض أو البحر. كائنات لا توصف إلّا بالأعجوبة. تتحوّل إلى حقيقة، حتى ليُظنُّ أنّنا نسمع صوتها. كلّ الحكّائين برعوا في خلق الشرّ الجميل.

شرٌّ، وليس خيرًا، يحرّك الحكايا. هذه ملاحظة ياسر: الأشرار يحرّكون القصص، لا حكايات دون أشرار وأوغاد وأنذال. يلزمنا الشرُّ لنبتكر المكيدة، والمكيدة تفترض حبكة، والحبكة يلزمها الذكاء، والذكاء يعني أنّنا سنحتاج إلى كمٍّ هائلٍ من الشرور، كالخديعة والغيرة المشؤومةِ والخصوماتِ والمعاركِ والشجاراتِ والخياناتِ، لا بدّ أن يُعذَّب البشر في الحكايات لتبدو مقنعة.

عندما نقول أكاذيب تشبه الحقائق يمكننا أن نؤلّف الروايات، عرفت ذلك منذ تلك النهارات الطويلة والقيظ في أشدّه، أنتظر ابنة عمّي «فريال» بفارغ الصبر، تأتي ويحضرالبحر المتلاطم الموج، العمالقة العظام مدجّجون بأسلحتهم اللّامعة. تلتمع عيناي ياسر وهي تتحدّث عن الحوريّات ذوات الخدود الأسيلة، اللّواتي يعشن في واحات لا تظهر إلّا مرّة واحدة كلّ مئة عام. وقتها، قال ياسر دون أن يعي أهمّيّة ما يقول: الأشياء الفريدة لا تحدث كلّ يوم.

حكايات النهار ستختلف عن حكايات اللَّيل. في اللَّيل، يعوم أهل القرية على سطوح بيوتها تلمُسًا لبعض البرودة، سيُشعِل اللّوكس، وعشرات من الفراشات ستحلّق حوله كما لو أنّه جرمٌ مضيءٌ، والفراشات شهب مستعجلة تصطدم به وتموت. ياسر ينهمك بعدُ الفراشات. تبدأ السهرة مع إبريق شايٍ كبير نصفه سكّر، وستخبرنا فريال عن ذلك الكائن العملاق الذي كان يخاف من أبنائه، فيبتلعهم حالما يولدون. لم تدرك قط أنّها تحكي شيئًا من الميثولوجيا الإغريقيّة، ولم تسمع قط بزيوس الذي كان يبتلع أولاده! وياسر يُعجب بهذه الحكايات، يلحّ على فريال بقصّ حكايات الحوريّات.

•••

لماذا خاطرنا بهذه الرحلة؟ ياسر... لم أحضر تشييعك، ولا دفنك، لم أقبّلك، لم أحضنك!

ليومين اثنين، عشتُ وهمَ أنّك يمكن أن تكون حيًّا، لكنْ جاءني الاتّصال المباغت من أحد أبناء عمّي، كانوا في مستشفى النبك، كان الصوت مترجرجًا، مزعزعًا بالبكاء بالكاد يقول لي: عثرنا على ياسر.

ياسر، جثّة تحمل رقمًا دون اسم أو هويّة، يجفّفها تبريد برادات الموتى في مستشفى النبك، التي فاضت برّاداتها بجثث مجهولة. لكلّ جثّة قصّتها، وحزنها، وحقدها، ومرارتها، وثأرها.

انفجر القهر، تلقّينا خبر موتك مرّتين، صُدمنا مرّتين. عندما أبلغنا زميلك أنّك متّ، وعندما عُثِرَ عليك في أحد برّادات الموتى بمستشفى النبك.

يا لحزنيّة الحزن! وحده الحزن حرٌّ، لك أن تحرث وجهك بأظافرك، تمزّق صدرك، تبكي حتى تتحوّلَ إلى مِزَق مثل خرقة بالية تحملها أدنى هبة ريح. يمكن لك تدمير نفسك حزنًا، لكنّك لن تهزم الحزن.

ينسلُّ السراب في الآفاق من سفوح التلال الخفيضة مثل دمٍ نازف. اقتربنا من القرية، عَبَرنا كلَّ تلك الضياع الصغيرة التي ارتجلها البدو في منتصف القرن العشرين، ضياع مكوّنة من عدّة بيوت، مجازًا يُطلق عليها اسم «قرية»، قباب مخروطيّة مبنية من الطين، قريتنا واحدة من تلك الضياع، النائية، على أرض سكنها يومًا الرومان، أرض مدجّجة بالذاكرة وبالآثار، كمِ هائلٍ من الرماح الحجريّة، والصوّانيّة الفولاذيّة.. كان باختصار هو ما خلّفته معارك الأمس، التاريخُ الذي صنعه الغدر: الأخ الذي يقتل

أخاه، الطعنات الجبانة في الخاصرة، كلّ تلك الهجمات التي تنفَّذ من الخلف، أخمص البارودة أيضًا يضرب من الخلف، تمامًا كما ضُرِب ياسر حتى الموت.

ألمحُ ذلك الدرب المتلاشي كجرح قديم. درب استأثر به شبح.

معظم السيارات تتجنَّب ذلك الدرب الترابيّ. منذ خمسينيّات القرن الماضي، شُقَّ طريقٌ محاذٍ لذلك الدرب، ومع الوقت تمَّ تعبيده بالإسفلت وأصبح الطريق الرئيسيّ، بينما بهتت معالم الدرب القديم، مثل ظلّ عميق لحكاية حدثت. ياسر لم يخشَ قطّ أن يسلك دربًا يجهل إلى أين يأخذه. وهذا الدرب الذي نحاذيه الآن سلكته معه في رحلة لصيد العصافير.

يمكننا الآن أن نقطع بادية الشام، أن نسلك الطريق المتَّجه من السلميَّة صوب حلب، عابرًا أرضًا صحراويَّة قاحلة، وعلى جانبيّ الطريق تلوح لنا بعض الممرَّات الترابيَّة، بعضها يتفرَّع باتّجاهات مختلفة. كلّها سلكها البدو سابقًا.. لكن، ثمّة درب بعينه. بقايا درب.. لم يعد يسلكه أحد. وحده شبح امرأة بثياب سوداء يسلك الدرب. يلوح في أوقات مختلفة، ويثير خوف الأحياء من الأموات. إنَّه شبح الخاتون عمشه. ياسر لم يكن يخاف من الأموات.

•••

عن بعد، تخفق صورة قصر ابن وردان، الأثيرة، نقطة غامقة على خارطة من غبار.. لم أتوقَّع أنّي سأمرّ قربك يومًا، وحالي حال حَمَلٍ ضعيف استجار بكهف مظلم ليتَّقي أمطارًا ورعودًا في غير موسمها.

كلَّما اقتربنا أكثر من القصر يأخذ الغبار لونًا آخر، وتعوي ذئبته الشهيرة.

صمتي بأسره، أحمله معي ويمرّ محاذيًا لك. كلَّما مررت قربك تيقَّنت من وهم وجودك، فجمالك الغريب أيضًا مريب، كيف تجيب على تساؤلاتي الكثيرة بشأنك. قصر فخم مبنيٌّ قبل الإسلام، لم يذكره أحد من جغرافيّ العرب. ولا ياقوت الحمويّ الذي ذكر قصورًا عديدة أقلّ شأنًا منك! غَمُضَ على التاريخ معرفة ابن وردان الذي نُسبتَ إليه. في أيّ عهد كنت، وبُنيت، وازدهرت؟ وكيف بدأ خرابك..؟! هل حقًّا كما قيل: إنَّ معظم ذلك حدث في عهد السلطان عبد الحميد، حينما أمر بإنشاء ثكنة «الحمراء» فنقل الجنود حجارتك إليها، ثمَّ أجهز الجوار على ما بقي؟

سيرتك الغريبة أمسكت بي. الآن، فهمت لماذا تعلّق بك ياسر دائمًا! ثمّة شبه بينكما: كلاكما مغدور.

يبطئ السرفيس سيره قبيل الحاجز العسكريّ الذي ينتظرنا في القرية المحيطة بقصر ابن وردان الأثريّ. لظى الظهيرة في الخارج أحال كلّ شيء إلى سراب، إلى أن توقّفنا عند الحاجز تمامًا، تيقّنت من أنّ هؤلاء الجنود البائسين المتروكين لقدرهم، هم حقيقة وليس كذبة لفّقها السراب.

بالارتياب المعتاد، نظروا إلينا، مزّت هويّاتنا بين أيديهم، ثمّ أومأ أحدهم بإشارة من بندقيّته المحمولة بين يديه لنمرّ. نمرّ، وتتعلّق عيناي بقنطرة القصر.

من جديد، تتناسل الأفكار وتختلط الحكايا، إنّها فصاحة النبوءات كانت سببًا في بناء هذا القصر الجميل. أيضًا للأحجار أقدار كما للبشر. ثمّة أشياء لا تستطيع أن تكون في مكان آخر. وهذا القصر بُني هنا بسبب نبوءة عرّاف. يااللحكاية التي روتها فريال لك يا ياسر! لربما مئات المرّات سمعت دائمًا الحكاية التي لا يتغيّر فيها شيء.

أسحب بلّور النافذة ليدخل الهواء الساخن أكثر. وألقي نظرة خلفي على القصر الذي ابتعدنا عنه، وغاب عن نظري.

نلجأ للتفكير بحكاية غير حكايتنا، حينما لا نوهب أيّ شيء قد يفرحنا، تخلو الحياة من الظلّ والمذاق، نحاول تلمُّس سلام غامض عبر مركب متأرجح في بحر متلاطم الموج.

قال العرّاف للملك: ابنك الوحيد سيموت بلدغة عقرب.

الملك: ما العمل؟

العرّاف: أسكِنه في دار مجبول طوبها بماء الورد، فالعقارب تكره رائحة الورد.

وجُبلت كمّيّات كبيرة من الطين المخلوط بماء الورد، ثمّ شُويت، وبذلك الآجر المعطر بالورد، بُني القصر.

كبر الإبن وهو حبيس جدران القصر، ذات يوم كان على الشرفة، وقريب منه نوق وجمال ترعى العشب. اقتربت ناقة من الشرفة، وحاول الولد ملاطفتها، وحالما لامس ظهرها، لدغته عقرب!

كنتُ حائرة وقاحلة تمامًا كالبادية المقفرة التي أعبرها. يبطئ السرفيس سيره، يتجاوز مكانًا وقعت فيه قذيفة هاون. الطريق مهشّم في

ذلك الجزء، وتطايرت في المكان أشياء معدنيّة بدا واضحًا أنّها أجزاء سيّارة كِيا بحوض كبير. سمعت السائق يتحدّث عن صاحب تلك السّيارة التعيسة، كيف مات ومعه زوجته الشابّة مع طفلهما الأوّل. بالكاد لملموا أشلاء متفرّقة وجمعوها لتشكّل جثمانًا واحدًا ليُدفنوا ويُحظوا بقبر.

أشلاء! كلّ شيء يمكن أن يُفتت بلحظة ويتحوّل إلى أشلاء.. أصبح القبر منحةً قدريّةً مهمّة لمن مات وحافظ على معالمه واضحة بعض الشيء.

في تلك اللّحظات الحارقة، بينما السرفيس بالكاد يقطع الطريق المهشّم بقنابل اعتادت إلقاءها طائرات الجيش النظاميّ كروتين يوميّ، تقتل مدنيّين أكثر بكثير من «الإرهابيّين».

بينما يترنّح السرفيس ويخضّنا، ليقطع ذلك الجزء المتعثّر من الطريق. يظلُّ بصري معلّقًا بالدرب الترابيّ الموازي للطريق الرئيسيّة، لكنّه فجأة ينعطف ويذهب باتّجاه بعيد.. فضولنا إزاء محتوى كتب لم نقرأها هو ذاته الفضول إزاء دروب لم نسلكها.

•••

وحده، منزلنا كان محاطًا بالخضرة من كلّ جانب. لم يترك أبي نوعًا من الشجر إلّا وزرعه، حتى تلك الأشجار التي لا يمكن أن تعيش في البادية، كان يقول دائمًا: فلنجرّب.

استثمر ياسر قول أبي هذا، وراح يجلب كلّ ما تطاله يده من «أشتال» صغيرة لكلّ ما يمكن أن تقبله التربة. جرّب زراعة كلّ شيء. مع الوقت، تحوّل بستاننا الصغير إلى خميلة تضمُّ أشجارًا لا تشبه بعضها بعضًا. وليكتمل مشروع غابته الصغيرة هذه، جلب كلّ أنواع الحمائم وأطلقها لتنعش الشجر بأعشاشها.

كلّ الحمائم نَفَرَت وحلّقت في السماء العالية حتى لا ترى الدموع في عيني أبي، لم أكن قد رأيته بعد الفاجعة، انتبهت إلى أنّ البوّابة الحديديّة للمزرعة مغلقة في وضح النهار. ذلك لم يكن من عادات أبي. نبّهني وائل إلى أنّ الأمر اختلف، إنّه الخوف إذن «بابا».

عبرنا البوّابة، وحالما نزلنا، هرع صوبنا الأولاد: سمهر الذي أصبح أطول منّي خلال سنتين، لم أره خلالهما، ازداد شبهًا بأبيه، الفارق فقط في لون عينيه الزرقاوين. سارية كانت تحمل مرادًا الذي تجاوز السنة بشهر

فقط، أراه لأوّل مزة، كان يعبث بجديلة أخته بينما تلقّى قبلاتي له بخجل كبير، ووائل الأكثر شقرة بين أشقائه والذي يحمل اسم عمّه، بدا أكثرهم جرأة في التعبير عن مشاعره، بينما مناف الذي ورث لون عيني أبيه الخضراوين تلقّى قبلاتنا بملامح صامتة.

البكاء كان الغيم الممطر الذي تلبّدت فيه سماؤنا فجأة. تفجّرت غيمة ببكاء جماعيٍ لدى مقابلة «فاطمة» الزوجة الحزينة إلى الأبد، أبي وأمي. كلُّنا نبكي والحزن يسدّد طعناته القاتلة. لن يشبه الحزن شيئًا أكثر من الخنجر، يحضر فجأة بغتة يطعنك غدرًا.

عذّبني تلهُّفي الكبير للبكاء، يؤرقني دمعي مثل نيازك مسرعة إلى الارتطام بالأرض، للاحتراق أخيرًا.. والانتهاء. تلاشت كلُّ رغبتي الكبيرة بالحياة.

وحدها الذاكرة تعرف كيف تستقلُّ دربًا مختصرًا صوب الماضي. الماضي الجميل والسعيد لم يزل يردّد أصوات ضحكاتنا في أنحاء المزرعة.. المزرعة ذاتها التي تنصت اليوم لبكائنا وبكاء أطفالك، ياسر.

فجأة، ثقلت الحياة. بالكاد أنقل خطواتي. قبيل المغيب، كان موعدي مع قبر، تنحدر الشمس للغياب، وتضيء قبرًا مسوًّى حديثًا. ترابه طازج ومؤطّر بالحجارة. لم تُبنَ الشاهدة بعد.

الموتى لا يعرفون تمرُّدات الحياة، يستسلمون للاختفاء، للبعد، للتواري تحت التراب، بينما نحن البشر، نعوّل على الروح. لا أمجاد للجسد. وحدها الروح الأثيريّة في عالم الأرواح اللّامرئي، تمنحنا بعض الأمل، أمل مبهم، ربما لا أساس له غير أوهام البشر وتعلُّقهم بفكرة الخلود.

حالما نفقد أحدًا نتعلّم، كالعميان، التعرُّف على الأشياء بتلمُّس تضاريس لامرئيّة..

تراب قبره، متاحٌ للّمس، للشمّ، بينما روحه متاحة للسمع. تحرّكت أسئلتي القديمة إلى أين نذهب عندما نموت؟ أين نرقد؟! كيف يتّسع القبر لجسد بشريٍ مجبول بالتمرُّدات؟!

أن أنكبّ على قبر ياسر؟! إنّه صنف جديد من القهر لم أتوقّع أنّي قد أختبره يومًا.

الموتى لتوّهم، يطلّون علينا، دون أن نراهم. مثل أولئك الموتى منذ زمن بعيد، كأرواح سبقته: جدّتي وثلاثة أعمام وثلاثة أخوال.

ياسر بالجنة؟! الجنّة؟ لم يحدث أن أذللت قناعاتي بأن أبني لنفسي أحلامًا تحميني من الموت، ومن هواجسي البشريّة كإنسيّة فانية، أعرف أنّنا كبشر غير مؤهّلين للبقاء أو الديمومة، يمكن لحجر تافه مرميٍّ على قارعة الطريق أن يحظى بالبقاء مئات السنين، بينما نحن موثّقون بسلسلة تربطنا بالموت، فليس لنا غير حياة واحدة. دائمًا رفضت فكرة الاطمئنان الذي يدعوني إليه ضعفي، لم تمنحني فكرة «الجنّة» أيّ اطمئنان، اطمئناني يأتي بأنّي لا أغشُّ نفسي مطلقًا.

هكذا يقولون لي: «ياسر بالجنة».. كم أنفر من فكرة التضحية بالذات لأجل أيّ شيء! مُنحنا هذه الحياة لنفرّط بها مجانًا؟! لخواطر إيديولوجيّات وعقائد وشعارات اخترعها بعض البشر، ليُدفع البعض الآخر للموت!

يا لتعاسة هذا الكوكب في ظلّ هذه القناعات. يا لتعاستنا يا «عدن»! تجرحنا أحلامنا برياضك، ونبحث عبر الكلمات عن الحلم غير المتيقّن من وجوده.

ذاكرتي تؤوي عددًا لا يحصى من الجنّات! جنّات سعادة عائليّة عشناها، فردوسنا يكون عندما نعيش محاطين بمن نحبّ. غدوت فجأة محاطة بأصناف من البشر يبرّرون اغتيال فردوسنا الأرضيّ بحثًا عن الفراديس المجهولة. ربما أنا مصابة بلوثة الكتاب. الكتاب يحتاجون للخيال ليحصلوا على الفردوس. كلّ الفراديس متاحة لقلم شاعر. بينما هم ـ «المؤمنون»، يحتاجون للدم ليحصلوا عليه.

تخفت الأصوات أكثر فأكثر، ويخيّم المساء شيئًا فشيئًا.

تعوي الذئبة، يسلك عواؤها مساربه الخفيّة، وكأنّه يبحث عن شيء ما! وتغضب كلّ ليلة لأنّها لا تعثر عليه، فتعوي.. وينفلت الحزن.

أرغب بالاحتفاء بليل البادية كعادتي، لكنّ الليل هذه المرّة قاتم. وحدها رعشة أوراق الزيتون تؤنس وحدتنا.

عندما يموت الناس يصبحون تاريخًا، وياسر الآن تاريخٌ مُرٌّ من الصور الجميلة، كيفما تلفتُّ أراها.

على شرفة الطابق الثاني، أحدّق في العتمة، وأتوق لرؤية النسناس الذي كانت تخيفنا منه فريال. لا أريد سيّارات ترفرف عليها أعلام جماعات القتل، أريد أن أعوم حول جزيرة قنصور، تلك التي روى عنها السندباد، جزيرة تسكنها النساء، لطالما حلُم بها ياسر. أريد أن أمتلك أنامل ذلك

الساحر البارع القادر على تغيير الجوّ، وتبديل الأشياء، وتلطيف الأمور. غدوت رومانطيقيّة ساذجة بسبب الخوف!

أحدّق في العتمة، ولا أتخيّل إلّا الشيطانة « كفتار»، إذا نظرت إلى المرء سقط ميّتًا، فإذا شقّوا صدره لم يجدوا قلبه في مكانه. هكذا كانوا يقولون لنا ونحن صغار. ياسر لا يصدّق ذلك.

تصرّ فريال على أن تُخرج كلَّ المردة والجان من المفاوز والجبال والآكام والأودية والفلوات والآجام.. لتثير الرعب لدى ياسر، لكنّه يسخر منها.

•••

كل من زارنا عقب وصولنا، استنكر قدومنا، فالمنطقة واقعة بين براثن جماعات إرهابيّة مختلفة، وكلّها تتحدّث باسم اللّه.

أهرب من الفكرة، وأنظر إلى السماء.

أوّل مرّة دلتنا جدّتي على ملامح السماء الفلكيّة، كانت ليلة عاصفة هبّت ريح شماليّة، نظرت أنا وياسر نحو السماء، وأشارت إلى بقعة مضيئة فوق رؤوسنا، وقالت: هي نجمة «الزبانا». هما كوكبان مفترقان، طلوعهما آخر ليلة من تشرين الأوّل. ظهورها كما تقول جدّتي يعني: «هبوب البوارح»، وهي الريح الشماليّة الحادّة، «إذا طلعت الزبانا أجمع لأهلك ولا تتوانَ». تلك الليلة أمطرت مطرًا غزيرًا.

وقتها، لم أكن أنظر إلى سماء تخبرنا كواكبها التي لا تُحصى أنّنا قطرة ماء في محيط. كنت أظنّ أنّ السماء وجدت لتكون سقفًا لأرض البشر. بينما الآن، في كلّ لحظة يكتشف علماء الفلك كواكب كثيرة تشبه الأرض، تحتمل الحياة؛ ولكنّي أبحث عن تلك الكواكب التي لم تعرف شبهة الحياة ولا آفة البشريّة، تلك الكواكب التي لا تسمح أو لا تهيّئ نفسها لوجود آدميّ.

تتناوشني الذكريات الضبابيّة والعائمة مثل شاشات متجاورة، كلّ شاشة تنفرد بعرض لحظة لا تشبه اللّحظة التي تجاورها. هل كان ذلك تاريخ ياسر، أم ذاكرتي؟!

التاريخ يظلّ أكثر تنظيمًا ونزاهة من الذاكرة، الذاكرة امرأة نزوات، تعسُّفيّة في لحظة ونزوية في لحظة أخرى، بيتٌ واسعٌ مشرعٌ للأهواء.

•••

كان مقرّرًا أنّ رحلتنا لن تدوم أكثر من أسبوع. لكنْ فجأة، تغيّرت المعطيات حولنا، كيف؟

ثمة رسائل سرّيّة خبيثة مبغضة لم ترأف بفجيعتنا، تتسرّب إلينا عبر بعض الأقارب. مفاد الرسائل كان مرعبًا: مطلوب من العميد الركن هويان الانشقاق؟! وعلينا أن ندفع مبلغًا خياليًا لقاء بقائنا في مزرعتنا وأرضنا الموروثة عن جدّي.

كان أبي مشدوهًا من الفكرة، الضابط الستيني المتقاعد منذ حوالى ثماني سنوات، الآن عليه الانصياع لأوامر ضابط أقلّ منه رتبة وشأنًا وعمرًا، وعليه أن يحزم حقيبته كشابٍّ متحمّس ويلتحق بخدمة أفراد يتجمّعون من جهات مجهولة، وعليه أن يحارب على جبهات أيضًا مجهولة!! وعليه أن يظهر على قناة تلفزيونيّة، ويعلن انشقاقه عن جيش تقاعد من خدمته منذ سنوات؟

سخر أبي من الفكرة، وظنّ أنّ بعض أقاربنا يهوّلون الأمر.

لم يُمنح الأب المفجوع بابنه حتى بضعة أيّام لبكاء فلذة كبده، إنّما عليه أن ينصاع لأوامر جهة، وحده اللّه يعلم مَنْ وراءها.. وهؤلاء هم أيضًا قَتَلَة ابنه. هل تعرفون القهر؟! هل تذوقتموه؟! وحدهم السوريّون أكلهم القهر.

تعوي الذئاب وينداح الحزن مرتحلًا، لا أحد يملكه، لا أرض مسوّرة له ولا حدود.

•••

يمرّ النهار، وأنا ملفّعة بالأسود، وأتنقّل بين منزلنا ومنزل الأولاد وأمّهم، أقطع الخمسين مترًا التي تفصل المنزلين بتعثُّر وارتباك. كنت أعرف أنّي أمرّ بأكثر أيّام حياتي مرارةً وحيرةً وغموضًا.

وائل ومرام شريكاي في الرحلة الحزينة تلك، تقاسما معي العتبة الرخاميّة في الطابق الثاني، لتكون ملاذنا الذي يقينا من القيظ الرهيب، ومن أعين أهل القرية. ثمة تسلية اخترعناها عندما رحنا نمحّص الآفاق الفسيحة حولنا، بتبادل منظارين عسكريّين عثرنا عليهما في إحدى الخزائن.

بدأنا نتكلّم بصوت منخفض ـ أنا ووائل ومرام، حول مصير العائلة.

كانت الصورة واضحة: الآن وقت تصفية الثارات، الثارات الشخصيّة

المتوارية وراء حجب الغيرة والحسد. فجأة، ذهبت الخدمات التي أسداها أبي للمنطقة هباءً منثورًا، لم تغفر له الطرقات المعبّدة التي سعى لوصولها للمنطقة طوال مدّة خدمته في الجيش، ولم تغفر له المدرسة التي جيّش كلَّ معارفه وزمالاته في الحكومة لأجل بنائها، بغية أن يخرج جيل متعلّم من أبناء عشيرته.

بلى، ثمّة شيء أسود في سجلّه الخدمي: العميد هويّان لم يساهم في بناء جامع في القرية؟

هذا سبب كافٍ لإفناء عائلتنا بكاملها، ومصادرة أملاكنا.

فجأة، أصبح كلُّ من حولنا يساعد في زيادة الذرائع لغاية تصفيتنا.

أنام، أهرب من الحقيقة، وأنام ساعات طويلة. وفي عمق النوم أسمع عواء الذئب. مخطئ من يظنّ أنَّ عواء الذئب غطرسة، أو تحدٍّ، أو غرور، بل هو ذاكرة. ذاكرة على فراش الموت.

ويعوي الذئب، لأنّه ليس مثلنا نحن البشر نعثر على كلمات لكلّ شيء.

ينسلُّ صوت مرام خفيًا، ويهمس لي: بسبب جراحنا الأسوأ والأعمق تنطلق عواءاتنا الأسمى والأفضل.

إن لم تكن لدينا أعماق من الحزن لن تكون لنا ذُرى من السعادة. مرام صموتة دائمًا، لهذا تقول أشياء فريدة.

هل فكّرت بشيء من هذا تلك الذئبة المحزونة قبل ثلاثين سنة؟! كلُّ ما ننطقه من كلمات، كلُّ ما نكتبه، كلُّ الطرق التي نقطعها والجهات التي نقصدها، هي بشكلٍ ما شذرات من سيرة ذاتيّة لا نعرف نحن أنفسنا كيف شكّلناها. تلك الذئبة لم تدرك أنّها شكّلت قطعة تائهة من سيرتنا، تحديدًا في ذلك اليوم الذي قُتلت فيه الذئبة.

تربّصت الذئبة عند البئر الذي ترده الماشية، حرمت الغنم من مائها. مارست انتقامها على طريقتها. لأسبوع والماشية تشرب الماء في تلك الأواني الخشبيّة المتطاولة كقارب بدائي، تُملأ بالماء الذي تجلبه صهاريج محمولة على ظهور سيّارات الشفروليه، بينما البئر استأثرت بها الذئبة الحزينة.

في صمت الليل، أروي لمرام ووائل ذكرى لا يعونها. ياسر قاسمني كلّ ذكرياتي في هذه الديار.

لم يكن اللّيل صامتًا وحسب، كان أكثر من ذلك: أخرس، ومعتمًا، وأبكم، تمامًا كتلك اللّيلة التي قُتلت فيها ذئبة ابن وردان. بإصرار فظيع مارست انتقامها العادل، لحزنها، لجنونها المرير، كانت تبحث عمَّن يحرِّرها، يقتلها. كلّ ذلك الاستفزاز الذي مارسته في تلك المساءات كان انتقامًا عاتيًا. لم تكن تريد قتل أحد، إنَّها تحمي رائحة وليدها القتيل. المكان يحمل رائحة دمه. مرّت سبعة أيّام بلياليها والعواء ينداح كفضاء لا مناص منه. تفتك بها تلك الرائحة التي لا تعرفها ذخيرة العطّارين، رائحة الولد القتيل.

سألوا «خلف» الذي كان يعرف خفايا الذئاب: أسرارها، مواقيتها، سننها، ألاعيبها.. فبعد ثلاثين سنة من المعاشرة الصامتة لهذه المخلوقات، يمكنه أن يجيب على كلّ الأسئلة المتعلّقة بها، لكنَّ خلف صمت. كانت مبادرته الوحيدة أنَّه لم يتذمَّر من نقل الماء من الصهاريج المحمولة في أحواض الشفروليه إلى «الطوالات» الخشبيَّة، حيث تشرب الغنم ماءها دون تكدُّر.

يلخ ياسر على خلف، يسأله السؤال عينه: متى تكفّ الذئبة عن العواء؟!

الذئبة تعوي وتعلن أنَّها موجودة، وحزنها موجود، ولا تنسى ولا تصفح. إنَّها تنتمي إلى طبقة المخلوقات القوِيَّة، المفترسة، تعيش مأساتها دون إذن تلك المخلوقات الأخرى الهامشيَّة.

تعوي كبطلة خرافيَّة مرسوم قدرها سلفًا، مكبَّلة بمصير مكتوب سلفًا. اتَّفقوا على قتلها.

في اللّيلة الأخيرة قبل مقتلها، بسط العواء نفسه، سيِّدًا. الذئبة لم تمنح ليلنا أيّة هدنة صغيرة من الصمت، واظبت على العواء اللجوج الذي حطّم المسافات وعبأ الآفاق. تعوي وتخوض المعركة الأشرس مع حزنها.

تأوي إلى الجحور القريبة من البئر.. فرّت الثعالب، هجّت الأرانب، والكلاب خنعت عند أطناب البيوت، والذئبة تعوي في وجه اللّيل، وكأنَّها تصيح: لي سماء أستعيدها.

بعد ظهيرة اليوم الثامن، تحوَّلت بضعة صخور ضخمة محيطة بالبئر المحفورة بمعاول الرومان قبل مئات السنين، إلى متاريس مؤقتة لعدد من أبناء عمِّي: سيقتلون الذئبة، اختبأوا مع بنادقهم، وسيق قطيع صغير من الماشية صوب البئر، استفزازًا للذئبة. قبيل المغيب بقليل، ظهرت الذئبة

وهي تكشّر عن أنيابها، تتوعّد كلّ من تسوّل له نفسه الاقتراب من ذلك المكان. لم نرها، حبسونا جميعًا في البيوت، جدّتي حدّدت لي ولياسر، نهاية طَنَبِ البيت، ليكون آخر حدّ تقطعه أرجلنا. منزل جدّتي كان منصوبًا في مكان قريب من البئر، كان ذلك مصادفة وحسب، لهذا سمعنا أبناء عمّي يتصايحون وقت ظهور الذئبة.. ياسر يداعب الجداء الصغيرة المربوطة إلى عمود جانبي من المنزل.

توقّفت الجداء عن الثغاء. كلّ شيء صمت، بدأ إطلاق الرصاص، حوالى خمس أو ست طلقات سمعنا انطلاقها، وخَلَف الذي لازم ماشية جدّتي قريبًا من المنزل أحصى رصاصتين دخلتا في بدن الذئبة! كيف؟ سأله ياسر بدهشة. قال خَلَف: «الرصاصة التي تستقرّ في بدن أحد ينتهي صوتها فجأة». لم أفهم كيف! لكن بالفعل عندما انتهت المعركة مع الذئبة واقتربوا منها، وجدوا رصاصتين في جسدها واحدة قريبة من القلب وتلك الرصاصة القاتلة التي كانت في رأسها دخلت من جهة أحد الأذنين.

ربما أصبحت كاتبة لأكتب تلك اللّحظة بالذات، لحظة بدت حقبة طويلة من الزمن، لأكتب تاريخ العواء الحزين لذئبة لا تاريخ لها، تنتمي لمعشر لا يخترعون أحداثًا تاريخيّة، معشر يحرزون انتصارات هاربة ووقتيّة وزائلة، تمامًا كما هو الأمر مع صيد حمل ضعيف أو إطلاق العواء في وجه اللّيل، وتمامًا كما هو الأمر مع قتلنا لتلك الذئبة. لا البشر ولا الذئاب، ولا ذلك الهز الذي يتمطّى على درج مطبخ جدّتي، يمكنهم أن يحرزوا انتصارات طويلًا. وحدها الهزائم مديدة والزيف متروك لـ«الانتصار».

لم نرَ الذئبة وهي تُقتل. تخيّلتها دائمًا: كملكة أُطلق عليها الرصاص من الخلف، رغم ذلك تنحني لتلتقط تاجها. لبثنا أنا وياسر نلاعب الجداء ولم نهرع، كما فعل الجميع لرؤية الذئبة القتيلة.

المزيد من الشاي.. شاي، ثمّ قهوة، ثمّ شاي.. يخيّم السكون.أتنكّر بدور الحكّاءة لمرام ووائل، لعلّي أشغلهما عن الخوف قليلًا. أصبحت حياتنا «تلفتًا» مضنيًا صوب الجهات. وبغتة، بقلب العتمة يحضر ظلّ ياسر بمثابة رؤيا. أسمع خطواته تجيء من ورائي، في رحلة ليلية تحت سماء متوهّجة بالنجوم، نقطع دربًا ترابيًا ملتويًا يعبر أرضًا مسطّحة. صمت مطبق، فقط صوت وقع خطواتنا، وبضع أصوات غامضة لكائنات اللّيل. كنّا نمسك بيدي جدّتي بقوّة.

أصرّ أن يلحق بي عند جدّتي، لأنّه يعرف أنّها كما كلّ الجدات تسمح

لنا باللّعب كما يحلو لنا. ذات صبح، أنهضتنا جدّتي مع طلوع نجمة الزهرة، وقالت إنّنا سنذهب لزيارة خالتنا. رشقت وجهينا بالماء البارد ومشّطتنا ونحن نصف نائمين، ثمّ سحبتنا من أيدينا لتبدأ رحلتنا صوب منزل خالتي مشيًا على الأقدام. انشغلنا بمراقبة كلّ الخيالات المتحرّكة، لكنْ بشكل سرّيّ كي لا تنتبه جدّتي، حتى لا تضحك من خوفنا.. الخوف عيب في الصحراء.

مررنا قريبًا من مدرستي الطينيّة. رغم العتمة، أمعنت في النظر إلى نوافذها المدوّرة الصغيرة وبابها الخشبيّ، لعلّي ألمح أحد أفراد الجنّ، أو ربما السعلاة، أو السعلوية كما تسمّيها جدّتي، وهي كائن مخيف عيناها مشقوقتان بالطول، ولها ثديان طويلان، وأرجلها حوافر ماعز.. كنت أزعم أنّي أراها دائمًا في مدرستي الطينيّة، وياسر يصدّقني. دقّق نظره معي في العتمة، ونظر إليّ من وراء ظهر جدّتي، وقال لي مشكّكًا بكلامي: «لا أحد»، فقط بومة قطعت رحلة قصيرة بين قمة إحدى القباب وحجر أسود كبير، أعرف أنّه يخفي فم بئر قديم مردوم.

لم نكن وحدنا، هنالك أيضًا كان ثمّة مجموعة من النساء والرجال ذاهبين لحصاد القمح في بضعة دونمات متفرّقة، كانت مزروعة بقمح يزرعونه ويحصدونه ليكون خبزهم.

الضوء يكسر العتمة قليلًا، عندما افترقنا عن مجموعة الحصّادين، قالوا لنا وداعًا، بينما الضوء بدأ يشقشق، وفكّرت ماذا لو قالوا «وداعًا» بينما الطريق يظلم!!

بسبب ولع ياسر بالصيد، اضطرّ مع الوقت لحفظ اتّجاهات كلّ تلك الخارطة المتشابكة لطرق تبدو، لوهلة أولى، عشوائيّة. اكتشف مبكرًا الفرق الدقيق بين الطريق والدرب: للطرقات خطّ سير واضح، بينما للدروب عدّة مسالك. غالبًا ما يحدث أن يبدّل الدرب وجهته، يتقلّب يمينًا وشمالًا، يمكنه أن يأخذك في جميع الاتّجاهات، وحده يجعلك تلامس الآماد الخالية من البشر.

نمسك بيدي جدّتي، أعرف أنّ ياسر يجول ببصره الآفاق حوله، وهو يفكّر بحكايات «فريال»، يتلفّت ويمحص العتمة، لعلّه يلمح نارًا من تلك التي توقدها الغيلان في اللّيل للعبث وتضليل السابلة، لا يخيف تلك الغيلان إلّا ومضات البرق، إنّها تهابه وتفرّ منه.

تلاشت العتمة وحمرة الشفق تحتلّ الأفق، ننتظر الشمس بفارغ

الصبر، نكثر من التلفُّت حولنا.. مررنا بقرى مهجورة، لم تكن إلَّا بقايا قباب طينيَّة، بعضها انهار بسبب الإهمال وتخلِّي ساكنيها عنها، كلّ موسم مطريٌ يعني انهيار بضع قباب بشكل كامل أو جزئيٌ. تلك القباب المتناثرة المهشَّمة، بعضها بقي صامدًا ربما بسبب قشَّة واحدة، فهي عمائر تُبنى من الوحل المخلوط بالقش المجفَّف تحت أشعة الشمس الحارقة..

اختار لي ملك النوم عالم الطفولة، لأنجو من تعاسة الحاضر. في اللَّيل، أرى ياسر صغيرًا؛ وفي النهار، أروي لمرام ووائل كلّ النتف الممكن تذكُّرها عنه.

أنهض وأتَّجه صوب المطبخ وأحضِّر قهوتي.

كنت قشَّة محمولة بمنقار عصفور لم يحدِّد بعد مكانًا لبناء عشه، وأسمع عواءات مديدة لذئاب الحزن.

•••

ـ ٣ ـ

«يا ذيب ياللي تالي الليل عويت»

يسمع أبي تلك الأقاويل بتشكيك كبير، لا يستوعب أبدًا أنَّ أقرب المقرَّبين سيغدون عقارب جاهزة للغدر في ظلّ غياب القانون. لا رادع أخلاقي بالمطلق، كلّ ما هنالك أنَّ القانون غائب إلى أجَلٍ غير مسمًّى، ونحن على قائمة أناس يُختزل ذنبهم بأنَّهم متعلّمون. في كلّ قرية تقريبًا جامع، لكنْ لم يكن أحد يخاف اللّـه، إنَّما يخافون من الحكومة.

أقاربنا، بعضهم أصبحوا لا يقيمون وزنًا لشيء إلَّا لضغائن نائمة قديمة. الحسد والخيبة سبب لثورة النَّاس على الأغنياء، هل هنالك طريقة لتجنُّب هذه الثورة إلّا بجعل حياة الحسودين أسعد وأكثر أملًا؟!

تمرّ النهارات واللَّيالي على وتيرة واحدة. في اللّيل، نتلمَّس طريقنا في عتمة دامسة، بسبب انقطاع التيَّار الكهربائي. نمشي على رؤوس أصابعنا لئلَّا نتسبَّب بإيقاظ أمّي أو أبي، وتبدأ نوبات المراقبة.

من يخاف الآخر سيراقبه، سيغدو قلقه الذي لا ينتهي! «الآخرون»، الذين نخشاهم، مجرمون، آخرون ناقمون، حاقدون لأسباب مختلفة. ثمّة ضابط منشقٌّ برتبة متواضعة بذل جهدًا كبيرًا لإقناع الجهة الإسلاميَّة المسيطرة على المنطقة، بضرورة الاقتصاص من أبي.

علينا أن نخشاهم، الآخرون الذين يرفعون لافتات تحمل توقيعَ تاريخ طويل من الأحقاد العشائريَّة! أدركنا أنَّنا سندفع ثمنًا باهظًا لمجرّد أنَّنا عائلة ضابط ولو كان متقاعدًا. التهمة المفضَّلة لضمان حكم بالقتل: لم يساهم ببناء جامع للقرية.

في اللّيل، أفتح عينيّ جيّدًا، عليّ أن أبصر كلّ شيء.

حتّى أذناي تعملان بدقَّة. سمعتُ صوتًا بالكاد يُسمع. قنفذ يسلك طريقه اللّيليّ بين العشب تحت الشرفة مباشرة. هل توهَّمت بنفسي أنّي بدأت أمتلك شيئًا من بعض مواهب حيوانات البادية؟

كان أمامنا وقت فارغ، نملأه بالانتظار . الانتظار في البوادي أمر مختلف عن الانتظار في المدينة، كأن تنتظر دورك في عيادة طبيب أو أن تنتظر تحوُّل إشارة المرور إلى اللّون الأخضر. هكذا كان يشرح لي ياسر. كلّ مَنْ هوايته الصيد سوف يتعلَّم تلك الأشياء. هنا عليك أن تنتظر دون أن تغفل أو أن تسهو. ممنوع الشرود. غير مسموح إغماضة عين خلال ذلك. عليك أن تكون هادئًا إلى حدّ السكون.

السكون شيء مختلف عن الهدوء، هنا كلّ شيء ساكن، وعليك

مجاراة سكون البادية بسكون حقيقيّ. ليس من باب اللّياقة، إنّما لتحمي نفسك. لتتّقي شرًّا ما قد يكون قريبًا منك دون أن تنتبه، فكلّ الكائنات هنا تموّه نفسها مع التراب أو الصخر أو النبات. كان يرى كلّ شيء، تسديدة واحدة وتكون الرصاصة في رأس الطريدة. براعة ياسر في التسديد، تمامًا كرشاقته في اجتراح الطرق. سواء أكانت الأرض موحلة، وعرة، متربة، سيقود ياسر أيّ نوع سيّارة ويعبر مكائد الأرض، ليصيد.

أحد أسرار البقاء «التمويه». من قوانين ياسر للاقتراب من الطريدة حتى لو كانت مجرّد عصفور. لم أمتلك قطّ الحراشف اللّازمة لتمويه ألواني، وليس لديّ الأطراف الملائمة التي أحفر بها جحرًا أو وكرًا آمنًا تحت الأرض.

حاولت بإصرار تذكُّر تلك الشعوذات والتمتمات السحريّة التي كانت تتمتمها ونسة الأيزيديّة قبل ثلاثين عامًا.

نرافق وَنْسَة، وهي منهمكة في كشط تراب أخضر اللّون رماديّ عن سطح الصخور، لاستخدام ذلك الغبار لأمّهات الأطفال الرضع لوضعه بين أرجلهم. البدويّات لم يكن لهنّ علم بمثل هذه الفائدة. أو أنّها تبحث عن أزهار الخطميّ لتجفيفها، تقول: إنّ ساقها مفيد لنمو الشعر.

وَنْسَة الأيزيديّة، تريد أن تحتفل بعيد الربيع «سار صالح» أوّل يوم أربعاء من نيسان بحسب التقويم الشرقيّ، ينبغي علينا مساعدتها، أتذكّر جيّدًا كيف احتفلنا بعيد «سار صالح».

وَنْسَة ، عرفتها جيّدًا، كانت دخيلة عمّي، قبل حوالى ثلاثين عامًا. تمامًا كما عرفها ياسر. تقبض عليه تلك الصورة التي تجمع اثنتين من بنات عمّي مع ونسة الأيزيديّة: ياسر ممسك بيدها، طفل بكامل ملامح الشقاوة، والذكاء: يضحك. الصورة في منتصف الثمانينيّات، بالكاد ملوّنة، باهتة، ومشرقة، كلّ الوجوه باسمة، تنظر إلى مكان أبعد بكثير من العدسة، نظرة تجرح سماء الاطمئنان الواهن. أركّز نظري في ملامح ياسر، يضحك ويرجع الصدى مدويًا كقذيفة تنطلق في عمق وادٍ وسحيق.

وَنْسَة الأيزيديّة، وصلتنا ذات فجر ربيعيّ ممطر، أنزلتها سيّارة شفروليه خضراء لها إطار فضيّ، كان يسمّيها البدو «سلفَرادو». نزلت وَنْسَة من السلفَرادو، ملفّعة بالأسود، بيضاء ممشوقة القوام جدائلها كستنائيّة تتجاوز حزامها الجلديّ الذي يلفّ خصرها وتتدلّى منه حلى فضّيّة كثيرة، كانت مثار فضول ياسر.

...

كلّ شيء يغدو مشروعًا للتذكُّر، لم نكن نملك شيئًا أكثر من الوقت البطيء. انهمكنا بنبش خزائن منسية، بحثًا عن ذكرى ما لا تعيه الذاكرة من زمن.. أصبحت حياتي انزواء وهروبًا وتجنُّبًا. لا أقوى على مقابلة أحد. تجرحني الدموع الساكنة في عيون أبي وأمي. أهرب للقراءة، فلا أستطيع التركيز. أحاول الكتابة، نعم.. الكتابة ملاذي الوحيد، أليست الكتابة مقاومة للموت، للاستعباد، لكلّ ما لا يُطاق. ذات مرّة نصحني ياسر أن أشبه الثعلب؟ كيف!؟ فليكن ملاذك مثل جحر الثعلب تتعدّد مداخله، المداخل في الآن ذاته مخارج.

ياسر يحبّ الثعالب. لماذا؟ لطالما صادفها في رحلات صيده، كانا كلاهما صيّادًا. لكلٍّ أدواته. ياسر يصطاد بالبندقية، والثعلب يمسك فريسته بالحيلة.

أفكّر باستراتيجيّة الثعلب، بينما يعوي الذئب عواءً يتأتّى ممّا حدث، ومن خوفه مما قد يحدث، مما سمع ورأى، من تلك الدروب التي أنهكه عبورها.

لا ننتصر دون خداع، لا فوز بلا خدعة، ردّد ياسر دائمًا. مات ولم يعد يشجّعني على الخداع.

لكلّ منّا لعبته، خدعته المفضّلة، لن تشبه خدعتك خدعة أحد غيرك. كوني قويّة، لكنْ فلترافقك خدعك دائمًا. الثعلب المخادع يغلب الذئب القويّ. كلّ ميداليّة ذهبيّة وراءها خدعة ما.

البدو، تعلّموا تكتيكاتهم اليوميّة من الحيوانات التي حولهم. لم ينسَ ياسر قطّ النصائح الحربيّة التي سمعناها مرارًا من عمّي، الذي كان يعرف أنّ ما يصلح للتطبيق في الحرب يصلح للتطبيق في الحياة اليوميّة. يعرف الثعلب كيف يفكّر الأرنب، إنّه لاعب بارع، يتظاهر بالتعثُّر المؤقّت أو الإصابة.. كلّ ذلك جزء من اللُّعبة. بالكسل، والموت، والغباء.. كلّها حيل يمكننا أن نستخدمها لنشوّش الآخرين. كلّ آخر هو عدوّ سلفًا. احتفظي بقوّتك الحقيقيّة داخلك، لا تظهريها كاملة. الغموض أفضل حلّ. كوني هادئة، بالهدوء نحفظ أسرارنا. رغم رشاقة الثعلب، فإنّه يلبث وراء صخرته حتى تنساه الفريسة. لا يكرّر خِدَعه، حتى خِدَعه الشهيرة كالتظاهر بالموت يجري عليها التعديلات، فيتظاهر بالتعثُّر، أو النوم أو الانشغال، كأن ينظر إلى جهة مختلفة للجهة التي يكون فيها الأرنب. كلّ الحيوانات المفترسة لا

تدافع قطّ، هي تهاجم وحسب. الدفاع شأن الضعفاء.

الذئب يتخلّى عن قتل الغزالة السريعة التي تركض دون الالتفات للوراء. عندما لا تضيّع وقتًا ضئيلًا خلال التفاتة صغيرة للوراء، فإنّها غالبًا ما تنجو، بينما سيوفّر الذئب قواه ولياقته المتبقية لطرد غزالة أقلّ رشاقة أو أقل تصميمًا.

يحقّ لنا أن نغيّر أساليبنا باللّعب. نجدّد الخدع القديمة الناجحة، لأنّها غدت مكشوفة. إذن، فلنحتلْ بأخرى غيرها.

إخشَ المتحرّك مرّة، وانتبه من الهادئ ألف مرّة. الهادئون هم البارعون برسم المكائد وتدبير الكمائن. المتربّصون هم الذين يفوزون دائمًا. كلّ الكائنات التي تُفترس تتحرّك كثيرًا، لا تهدأ، تظهر في كلّ وقت، يغريها كلّ شيء بالاقتراب والتشمُّم، بينما تلك المفترسة قلّما نبصرها، تحافظ على هيبتها، فالظهور المفاجئ للذئب يقتل الغزالة قبل أن تهرب. يقتلها خوفها وارتباكها، يشلُّها التفكير بالموت. الغزالة أكثر سرعة من الذئب، لكنّ الذئب يقتلها.

لا يصنع الوضوح أبطالًا، إنّما الغموض يفعل ذلك. قول عمّي كان متّفقًا مع خالي قنّاص الصقور الشهير في البادية السوريّة.

رغم قوّة الصقور ومظهرها النبيل والأرستقراطي، تلجأ للخداع. فكلّ الصقور تنزلق بسرعة صوب الفريسة، وأجنحتها لا تتحرّك؛ لكنّها، أحيانًا، تخدع الفريسة وهي تحاكي أسلوب طيران الطيور فتحاذي الفريسة دون أن تثير الشكّ، فتمسك بها وهي في الهواء، بضربة قاسية تقتلها في الحال.

تجذبني الشرفات. اللّيل يحميني بشكل ما، أتنشّق نسائم باردة بعض الشيء، أستمع لحديث يدور على الشرفة الأرضيّة. الحديث يدور عن «الإنصاف». مرّة أخرى، قُتلت فتاة من عشيرتنا، لأنّها هربت مع شاب آخر من عشيرة أخرى! هذا هو «الإنصاف» الذي تتحدّث عنه بضع نسوة جئن لزيارة أمّي؟ إنصاف!؟ أن تُقتل فتاة لأنّها اختارت الرجل الذي تريد أن تكمّل معه حياتها، هذا إنصاف بالنسبة لهذا المجتمع؟ يقتلني هذا «القبح». هذا هو مفهوم الشرف في وطني. نحتاج أن نثبّت دائمًا أنّنا لسنا منحطّين، أن نشعر بالزهو لتملُّكنا «الشرف»، الشرف الذي يكون نتيجة طيّبة لسيرة حياة نظيفة من الأخطاء، والخطايا والتمرّدات، والتمنُّع عن اللّذات والملذات، إنّ هذا «الشرف» وضع قواعد من عنده لكلّ ما هو مفروض

علينا. كم من الفتيات اللّواتي سمعتُ عنهنّ قُتلن بسبب الشرف، مثل الخاتون عمشة، أو عرفتهن مثل وَنْسَة الأيزيديّة.

تلك اللّيلة التي عوت فيها الذئاب طويلًا، حكت لنا وَنْسَة قصّتها الحقيقيّة:

عندما سمعت الشيخ يتلو الصلوات طالبًا البركات من الملاك الطاووس، كان قد تمّ الاتّفاق على الورق ووضع الشيخ خاتمه على الورقة. قام الشيخ بمناولة وَنْسَة بعض التراب المصرور بعناية بمنديل. إنّه تراب مقدّس من مزار الشيخ عُديّ، وبالمقابل حصل الشيخ على خروف سمين من والد العروس.

وبعد عدّة أيّام، وجدت نفسها محاطة بعدّة نساء من العائلة. حمّمنها بماء ساخن، وكشطن جلدها بشمع العسل الساخن، واختفت حتى أدقّ الشعيرات من كلّ جسدها النحيل. ولمدة يومين بعد ذلك، عليها ألا ترتدي شيئًا غير الأبيض. وفي اليوم التالي غمست يديها بالحنّاء، وكذلك رفيقاتها، وقامت إحدى الفتيات بخلط الحنّاء في صحن كبير، ودارت به على كلّ بيوت الجيران والأصدقاء، فتأخذ النسوة والبنات بأنفسهن من الحنّاء، ويضعن بعض المال في الصحن كهديّة عرس.

كانت أمُّها تطلب منها البكاء لتبعد العين الحاسدة، لكنّ وَنْسَة لم تستطع أن تذرف دمعة واحدة.

«وَنْسَة» العروس ذات الأربعة عشر ربيعًا، تحتّم عليها أن تجلس بغرفة علويّة في بيت حميها شبه مظلمة، حيث يُسدل حجاب عبر منتصف الغرفة، بينما تجلس على فراش عرسها صامتة كما تقضي الأعراف. يجب ألّا تشرق عليها الشمس مدّة أسبوع. ولا تخرج إلّا لقضاء حاجتها، وخلال ذلك لا يجوز أن تمرّ فوق أيّ ماء. تلك عادات كلّ عروس أيزيديّة.

كانت تفكّر في الأيّام السبعة المقيتة التي عليها أن تقضيها في فراش الزوجيّة، دون أن يسمح لها بالخروج.

أخيرًا، جاء يوم العرس، وحُجب وجهها بالحرير الأحمر، وامتطت حصانها.. هنا، ياسر يقاطعها ويسألها بدهشة: «كان عندك حصان؟» تقبّله وَنْسَة وتعضّه من خدّه، ثمّ تكمّل سيرتها، وتروي لنا كيف زُفّت باتّجاه منزل عمّها. هطلت عليها أمام المنزل، الحلويات والأزهار التي رمتها أم العريس، ثمّ نزلت وسلّمت العروس جرّة مملوءة بالسكّر والحلوى، وقبل أن تلج منزلها الجديد كان عليها قذف تلك الجرّة على حجر العتبة، بحيث تنكسر

وتتبعثر الحلويات، ويندفع الجميع نحوها بلهفة للتبرُّك، وتمنّي المستقبل الزاهر للعروسين، لكنَّ يومها حدث أمر غير متوقّع إطلاقًا: الجرّة لم تنكسر؟! فجأة، احتلّ الصمت المطبق المكان، وسُمع صوت القابلة وهي تقول بصوت لاهث، أتت معها عصاها، وبيد أخرى يجرّها أحد أحفادها: رأيت منامًا هذا الفجر، وَنْسَة يريدها الشيخ عُدَيّ راهبة في مزاره. الشيخ عُدَيّ هو شيخ يجلّه الأيزيديّون ومن قدّيسيّ طائفتهم.

•••

يعوي ذئب ميّت، وعيناه يقظتان..

«الموت» خبر يوميّ، و«القتل» أمر عاديّ. أصبحنا نعيش حنينًا إلى الكلاسيكيّة، حتى في الحروب، أي تلك الحرب الكلاسيكيّة التي تتفجّر بإعلان المواجهة بين دولتين عدوتين، حيث تتّضح معالم وملامح الحرب، العدوّ واضح، والجبهة محدّدة في مكان جغرافيّ بعينه. لكنَّ، صيغة الحرب على الإرهاب، هنا الكارثة. حتى تلك الحرب الغاشمة، عندما تريد دولةٌ احتلالَ دولةٍ أخرى، أو غزوها؛ أو تلك الحرب العادلة عندما يريد شعبٌ أن يتحرّر من احتلالٍ لوطنه.. جميعها حروب مشروعة، لكنَّ الحرب على الإرهاب «موضة» قاتلة.

عدت لاستراتيجيّة الثعلب التي نصحني بها ياسر ذات يوم، دخلت إلى جُخري، مع أوراقي وكتبت.. بالحبر صنعت لنفسي نعشًا من أحرف وكلمات وورق.

كتبت، أنادم أرقي، وأنا أتبع خيط الذاكرة المخنوق في سراديب لا تقود إلّا إلى وحش النسيان، الوحش النائم، خلسة يتبيّن خوفك من صحوته.

كتبت.. أحاول تدوين خلاصات اكتسبت في الصراع مع أكثر سرابات الصحراء كذبًا. كتبت وكتبت.. فيما عواء الذئاب الحزينة يجرح آفاقها الفسيحة، منذ ذلك الصباح الذي نهضت فيه متأخّرة. الشمس قد ناوشت كبد السماء، وجدّتي قد أنهت كلّ أعمالها: خبزت وطبخت وأعادت توزيع الفتحات بين الأروقة ليعبر الهواء ناشرًا جوًّا مفعمًا بالبرودة اللذيذة. لكنَّ جدّتي لم تكن بالمنزل، ربما قصدت أحد البيوت المجاورة. اختفى ياسر أيضًا. تناهى إلى سمعي خليطٌ من الأصوات، كان أقواها صوت خالي يدرّب صقره على الصيد، يناديه باسمه: غنّام.. غنّام.

صرت أعرف أنَّ الفطور سيكون جاهزًا وساخنًا تحت الرماد، بطرف

المخلاة نبشت قليلًا، وأخرجت بيضة مع عدّة حبات فطر. والخبز كان طازجًا ملفوفًا بالثِفَال، أكلت وشربت الماء من القربة المعلّقة دائمًا على العمود الأوسط لبيت الشَّعر. وتلفتُّ حولي أين ستكون وجهتي؟ أين هو ياسر، أيّة شقاوة عثر عليها ولم يشاركني بها؟ عن بُعد، لمحته يمشي وراء عمّي الذي يتنكّب بندقيّته، ويهمّ صاعدًا الهضبة المغطاة بحجارة سوداء بازلتيّة ضخمة.

شمس نيسان كانت حادّة، وضعتُ قبعة من الجوخ الأسود كان قد جلبها لي أبي في آخر إجازة له.. لحقت بهما. أومأ ياسر لي بإلحاح لأعود أدراجي. وهو يعتبر أنّ الصيد لا يناسب البنات. عمّي، استسلم أمام عنادي، وأبطأ بخطواته لألحق بهما.

تفوح من عمّي رائحة التتن الحمويّ بشدّة، ويتفحّص بعينيه كلّ شيء. أخيرًا، لاذَ وراء صخرة كبيرة، واعتمد الخطاب البصريّ لمحادثتنا، دون أيّ صوت، فهم ياسر أين عليه أن يجلس، وأين ينظر. حذوت حذوه، كان يشيح ببصره عنّي، ومنزعجًا من حضوري. هناك كانت حوايا مائيّة منقورة في الصخر، يبدو أنّها كانت معاصر عنب لصنع النبيذ، ومع الإهمال والوقت، اعتقد البدو أنّها من إبداعات الخالق لتوفير المياه لهم!

يعرف عمّي الوقت الذي سيكون ملائمًا لسرب أوزٍّ عابر لشرب الماء. البارودة جاهزة للإطلاق وعمّي أخذ وضعيته.. عندما.. قفزتُ في اللّحظة الحرجة، وزعقت بملء حنجرتي بسبب عقرب كبيرة خَطَرَ لها أن تتشمّس إلى جواري.

لم أنسَ قط صوت ضرب الأجنحة الموحّد، في حركة جماعيّة مفعمة بـ«التعالي»، لتلك الطيور البيضاء المكتنزة، كسفن صغيرة نبتت لها أجنحة، رفرفت، وتعمّقت في أزرق السماء، بشكل لولبيّ منتظم تجمّعت، في كبد السماء. لم تكن خائفة، لو أنّ الخوف كان سببًا، لطارت كلّ أوزة في وجهة مختلفة. كلّ ما في الأمر «انعدام ثقة» بسبب خطوة من طفلة آدميّة، تغادر! تترك لنا صخب الأجنحة والرّيش، طارت، لكن لا تفرّ، إنّها كائنات تحتقرنا، لا تودّ أن تقيم أيّة روابط معنا، نحن البشر.

حلّق السربُ بعيدًا، وياسر ركض بضع خطوات في إثره، ثمّ تسمّر تحت الشمس يظلّل عينيه بيديه، وينظر في عباب السماء حيث اختفى السرب. حلّ الصمت المطبق. أخرج عمّي علبته الفضّيّة المليئة بالتتن، لفّ سيجارة وأشعلها بصبر وابتسامة حقيقيّة، وواساني قائلًا: سيأتي سربٌ آخر.

بلى، دائمًا هنالك سرب جديد، أمل جديد، طريدة جديدة.. هذه هي ذهنية الصياد.

كتبت في جُخري، وأنا أتسلَّح بذلك الأمل الخاص الذي يعرفه فقط الصيادون.

•••

تطول ساعات اللَّيل المضني. أفكِّر، لا أعثر على أيّ فكرة. دماغي فقط شلّة خيوط مفكوكة. عندما نتصدَّع، علينا أن نمتلك كلَّ ذواتنا المتناثرة حولنا، نلملمها، لعلّنا نتوهَّج من جديد، نشعُّ، نحيا. أريد أن أتخلَّص من حزني كما يتخلَّص السجين الهارب من أصفاده. لكنْ يمكننا أن نتحرَّر من كلّ شيء إلَّا الحزن، فإنَّه لا يمنح الحرية لأحد.

ستشرق الشمس، على الوحوش أيضًا، هل ينسى الذئب عواءه؟

ودَّ الذئب لو يصبح ذلك الصدى العميق للعواء.

الطريق الوحيدة المفضية إلى الحريَّة، الطريق التي تكوِّنها أنت. كيف سأشقّ دربي، أيَّة شفروليه ستساعدني على ابتكار دربي الجديد.

سأفشل للأبد أن أعيش دون حقد! دون مشاعر ثأر، دون بغض! أنشغل بِحَشو بضع تمرات بالجوز، وأعدُّ إبريقًا من الشاي الحلو.

وقع أقدام تصعد الدرج ينتشلني من أفكاري وهواجسي. إنَّها سارية، تخبرني عن وصول واحدة من بنات عمّي. أمّي تعرف أنّي أحبّ تلك المرأة.. إنَّها «فريال». كنتُ طفلة وهي مراهقة، وأغرقتني بعالم الحكايات، حيث كلّ ما هو عجيب قليل الوقوع، مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة. «فريال»، تروي كلَّ تلك الأعاجيب دون أن تغفل عن تعطيل الشكّ والحذر والريبة لدى سامعها، فتضع فواصل جغرافيَّة وتاريخيَّة بين المألوف والخارق. فتذكر الهند والصين وأرض اليمن.. وأنا أصدّق كلّ ذلك. الغريب بعيد، والعجيب بعيد، لكنَّ ابنة عمّي تمحو الحدود وتنسف المسافات.

تبربر ببعض الأشعار، وتقول إنَّها من قول الجنّ، أسألها عن إثباتٍ لذلك، فتقول لي بأنَّ أحدًا من الإنس لا يستطيع أن ينشد تلك الأشعار ثلاث مرّات متتاليات، دون أن يتعتع فيها! يردِّد ياسر تلك الأشعار، «متعتعًا».. تضحك فريال.

«فريال»، لم تكن بارعة فقط برواية الخرافات، كانت أيضًا بارعة

بقصّ الحكايات المؤلمة والحزينة. فلِلألم حكاياته أيضًا. هل تذكر كيف روت لنا حكاية ذلك الدرب الذي يتجنّبه النّاس؟

لطالما أشعل ذلك الدرب فضول ياسر. أوّل درب سلكه حالما تعلّم قيادة السيّارة، كان ذلك الدرب.

درب يغيّر مساره فجأة بسبب شبح. كان يقول لي بحسم: «هذا درب وليس طريقًا».

تلوح فيه الخاتون عمشة كشبح يجفل الغزلان والذئاب والسيارات والسيول. يقولون إنّه منذ ذلك اليوم الذي قُتلت فيه «الخاتون عمشة»، كفّ أحد السيول عن المجيء. فحيث قُتلت الخاتون، كان هنالك مسيلٌ مائيٌ جارف يهدر فجأة في أيّام الربيع، وحتى في وقت الصحو. لكنّه حَرَف مساره، بسبب الشبح.

أومأتُ لسارية بأنّي قادمة، غسلتُ وجهي ببضع رشقات من الماء البارد، وتلفّعت بأسود الحِداد، وبتؤدة، نزلت الدرج وفي أذنيّ يتردّد صوت فريال، وهي تروي تفاصيل من حكاية الخاتون عمشة. وقتها كانت ترويها للفتيات الشابات، ونحن الصغار نختلس السمع:

يقف معها الضابط الفرنسي، يتمعّنُ في ملامحها، بينما هي أخذت تشرح له استياءها من طبع الأغنام. الغنم تمعمع حيث لا خطر يتهدّدها، وإن أحدَق بها الخطر صمتت مفزوعة خائفة مشدوهة يشلّها الخوف، والذئاب تعرف ذلك.

أمسكت الخاتون جذيًا صغيرًا، وراحت تلاطفه بمحبّة وهي تشرح للضابط ذكاء المعز، بسبب سلوكها الفوري إزاء الخطر، لذلك تتجنّبها الذئاب!

انتبه الضابط إلى أنّ الخاتون لا تحمل ملامح غيرها من نساء القبائل، كانت أكثر بياضًا وإشراقًا بوجنتين بارزتين كثمرتي تفّاح، بينما عيناها السوداوان مسحوبتان إلى أعلى مثل عيون المغول. خمّن أنّ هذه الفتاة وُلدت نتيجة تهجين جميل بين عرق أجنبيّ ومحلّي. لا بدّ أنّه كان يعرف كلّ تلك القصص المتعلّقة بشأن زواج البدو من فتيات شركسيّات وتركمانيّات وأرمنيّات.

اضطرّ الضابط للانسحاب حتى لا يلفت الانتباه. فهو يعرف أنّ بنات البدو يتمتعن بقسط لا بأس به من الحرّيّة، بحيث يمكن لهنّ محادثة الرجال إلى حدٍّ معقول.

انتبه إلى أنَّ الخادم كان يناديها بالخاتون. وهو يعرف أنَّ لقب الخاتون عادة تحصل عليه سيّدة القوم. كان واضحًا له أنَّها ابنة الشيخ الذي نزل بضيافته.

تلك الليلة، نهض على ضوضاء عاصفة أحدثتها حوافر المعز التي دخلت الخيمة، وكانت فوق رأسه عدّة عنزات. إذن، الذئاب قريبة. الرجال تناولوا بنادقهم المعلَّقة لتوّها على العمود الأوسط الذي يرفع البيت، وهبُّوا يتفقَّدون المكان.

تحمّل الضابط اضطراب عدّة خرفان صغيرة مربوطة بعواميد البيت، لأنَّها عادة ما تكون فريسة سهلة للذئاب، بينما كانت الحملان الأكبر سنًّا مع أمّهاتها، وقد أحاطت بها الإبل الباركة كما لو أنَّها كانت تحرسها.

بتلك الطريقة التي كان يعمد إليها كلّ البدو لحماية الضأن، لكنَّهم أيضًا يعرفون أنَّه كثيرًا ما يتاح للذئاب أن تختطف من تلك الحملان الصغيرة، عبر التسلُّل خلسة بين الجِمال الباركة التي عادة لا تجد مبرّرًا للتدخُّل إلَّا عبر هديرها المضطرب، الذي يدلّ على قلقها. والحراس الفطنون عادة ما يستدلّون على وجود الذئاب من تلك الأصوات.

كان الضابط يتنكَّر في هيئة عالم آثار. مكان عمله تلال متتالية في مساحة شاسعة، حيث دُثرت مدن تستلقي في حضن الموت منذ آلاف السنين، أحيانًا بسبب غزو جيوش فتّاكة، أو بسبب زلزال مدمِّر، وأحيانًا تنتهي سيرة تلك المدن المزدهرة فجأة من التاريخ، دون أسباب واضحة. كانت مدينة الأندرين هي محظته الأثريّة.

كان يقود بعثة تنقيب هناك.

في تلك الليلة، بينما الشيخ ورجاله منشغلون برذ الذئاب المهاجمة، اختفى الضابط، كذلك الخاتون عمشة.

•••

عندما لا تشير الخرائط إلى شيء، إذن أنت في المتاهة.

أخذت أيّامنا روتينًا واحدًا: أنا، مرام، وائل، أقمنا في الطابق الثاني، لا نريد تلك الزيارات العشوائيّة على مدار الساعة من قِبل أقاربنا. كلّما دخلت امرأة ستبكي، وترمينا بعشرات المواعظ حول الصبر والفرح بشهادة أخينا!؟ أصبح الجميع وعّاظ دين؟! ستأتي ضيفة، رغم أُميَّتِها وتحاول تلقيننا بعض الدروس الدينيّة. وبعد أن تنتهي نوبة البكاء، ستبدأ بطرح

شتى الأسئلة «الحشريّة».. أمّي تكفّلت بتلك الاستقبالات، لأنّها كانت تشرُد في عالم آخر، لم تكن تسمع شيئًا من ثُرّهات زائراتها، لأنّها كانت في عالم الحزن القصيّ.

تمترستُ في الطابق الثاني مع الكثير من القهوة والشاي، والبسكويت؛ ومكتبة متواضعة فيها بعض الكتب المنسيّة، بينها عثرت على كتاب، مُهَلْهَل، هو سيرة أبي زيد الهلالي، سترافقني مدّة خمسين يومًا، أيضًا ثمة كتاب عن السوريالية عن أندريه بريتون، كلّ ما يحدث غير معقول! ما المانع من تجاور أبي زيد وأندريه بريتون؟! إضافة إلى بعض مجلّات: العربيّ، والصيّاد، والمختار ـ أعداد قديمة جدًا، بعضها يعود لنهاية السبعينيّات.

يتحكّم البطء بحياتنا جميعًا. أخذتُ مكاني الصباحيّ في الطابق الثاني، على عتبة بوّابة حديديّة مقنطرة تُشرع على الجهة الغربيّة. ممنوع أن يلمحني أحد وأنا دون حجاب! إذن، الشرفة بالنسبة لي تنتهي عند الدرابزون. ثمّة جهة واحدة يمكن أن أطلّ منها دون أن يراني أحد، وفي الوقت نفسه أتنشّق هواء الصباحات وآمداء البادية السارحة، دونما مخاوف من نظرات مختلسة.

بين رشفة قهوة وأخرى، أنظر إلى صورة جدّي: عيناه، تذكّران بشخص ما، ليس حكرًا على البدو. كان عليه أن يظهر في أسطورة ما قبل ألف عام من الآن.

قد يعتبرك من يراك الآن بعد خمسين سنة قديم الطراز، فالزمن يغيّر الثياب والهيئات والنظرات.

ألبوم صور عائليّة قديمة سيقلب المزاج. ملاذنا المتاح ألبوماتنا العتيقة. أنهض، وأنا أحافظ على انحناءة قوّيّة تفاديًا من أن يلمحني أحد. سبقتني مرام إلى إحدى درفات الخزانة، وأخرجت عدّة ألبومات.

أجدّد القهوة، وأنعزل مع الألبومات.

أتوقّف عند صورة أمّي ببشرتها البيضاء كما الجليد الغامض، لم تكن بالبدوية النموذجيّة.

أستغرق بين تلك الصور القديمة، بين يديّ يتحوّل الألبوم إلى متحف بلا جدران.

يمكن لصورة عتيقة مخدّدة بالزمن أن تفرض عليك التريّث، تتوقّف،

لعلّك تقبض على لحظة نافرة، هاربة، يحكمنا ضيم الإحساس بتلك اللّحظات التي يريد الزمن سحقها، تضييعها. أمسك بكلّ صورة وأحاول تصنيفها، جمعها، فهرستها، لكنْ من يستطيع جمع نثار زمان فالت؟!

تعثر مرام على صناديق كرتونيّة صغيرة، علب خرطوش الصيد. كانت تخصّ ياسر. بعضها يحمل صورة غزال، وأخرى عليها صورة أرنب. مرام تردّد ما كان يقوله ياسر دائمًا مبرّرًا حبّه للصيد: «الإنسان اخترع رصاصًا للصيد، لكنّه قتل به بشرًا أكثر بكثير مما قتل أرانبَ وغزلانًا. ابتكر أيضًا سكّينًا طعن بها وقتل، أكثر ممّا استخدمها على الموائد، والعدوّ الوحيد الجدير بالقتال هو هذا العار: عار قتل آدمي لآخر».

يجلب اللّيل معه الخوف. نلوذ بالعدسات المكبّرة للمناظير العسكريّة، ونتولّى مراقبة الطرقات الأربع التي تقطع قريتنا على شكل «إكس». حالما أعجز عن الرؤية بسبب الدمع، أرفع عينيّ إلى السماء، لا شيء ممّا لدينا يحظى بإعجاب نجمات كوكبة بنات نعش التي تلمع، وكأنّه لم يكن يحدث هنا ما يقلق سكينتها. أبكي وأحدّق إليهنّ، وكأنّني أريد التماس اهتمام تلك النجمات البعيدات، يصرفن وقتهنّ بالدوران حول نجم القطب، النجم الذي تتحوّل جاذبيّته إلى نفوذ.

الخيال لا يحبّ النهار، إنّما يستقرّ في مملكة اللّيل، وينادم وحوشه. هكذا كنت أفكّر سابقًا عندما أكتب. لكنْ، الآن، أخشاه. فَقَدَ اللّيل رومانسيّته. ما هو حاضر فقط الخوف! أجول بالمنظار حولي، أتفقّد كلّ شيء. تأخذ مرام استراحتها على طريقتها، تضع المنظار جانبًا، وتشرد بعينيها في العتمة العليا، تظلّلنا سماء الشمال التي تضيئها كوكبة بنات نعش منذ الأزل. تشعّ وكأنّها لا ترتاب في أنّنا، أو أيّ شيء من أشيائنا، يمكن أن يتمتّع بالبقاء إلى مالانهاية.

يقولون إنّ اللّيلة التي يزداد فيها وهج بنات نعش، ستشهد موتًا! أحدهم سيُقتَلُ مغدورًا، لم ينس أحد. كم توهجت نجمات بنات نعش يوم قتلت الخاتون عمشة!

تعوي الذئاب.. يعوي ذئب حتى فجر اليوم الذي شهد مقتل الخاتون عمشة.

كان الضابط الفرنسيّ الشاب متأكّدًا من أنّه لن ينسى طعم تلك القهوة التي يقدّمها له مضيفه.

ارتشف القهوة الساخنة، وأعاد الفنجان ليد الخادم، وعيناه معلّقتان

بآفاق متلاصقة، حيث سراب يجتمع مع الأفق ليسرّب إحساسًا مضنيًا من الحميميّة الحسّيّة لدى الرجل الذي يراقب تلك الشابّة.

كان الضابط من صنف الرجال الذين يرون أنّ جمال المرأة في مشيتها، وتلك الفتاة الشابّة المتسربلة بالحرير الأرجواني التي تخطر به عن بُعد مؤخرتها الرائعة، تذكّره بملمح ترنّح لبؤة شاهدها قبل سنوات في إحدى مهماته في أفريقيا.

كان يعتقد أنّه تذوّق كلّ أصناف الإناث في أوروبة وآسيا وأميركا وإفريقيا، وفي بغداد وبيروت. لكنّ هنا، كان محرجًا من نفسه، فقد كان على يقين أنّ ثمّة نوعًا غريبًا من الجمال قد فاته!

تلك الأنثى الشابّة التي تتحرّك ببطء يثير شهيّته سلبت كلّ تفكيره. كان أمام ردفين لم يحدث أن رآهما من قبل.

تلك المشية، ذلك الترنُّح للقوام الممشوق!

ما الذي تفعله تلك الشابّة أمام منزل مصنوع من شعر الماعز؟

كانت سيّدة بين قومها، وإلّا لماذا يلحق بها خادمان يحملان شيئًا بين أيديهما، بينما تتناوله منهما وهي تمسك نعجة، وتثبّت شيئًا حول عنقها.. تلبث قليلًا، ثمّ تنتقل إلى نعجة أخرى.

ليخفي وجهه المحموم بالشهوة، تلعثم قليلًا وهو يحاول انتقاء الكلمات الملائمة، ليسأل مضيفه عمّا تفعله تلك الفتاة كمحاولة جادّة منه لتغطية اشتهائه، والتذرُّع بعدم معرفته في عالم البدو، متظاهرًا بفضول كبير تجاه أدقّ التفاصيل حوله.

في الحقيقة، هو لم يكن يتظاهر، إنّما كان ينفّذ مهامه الموكلة إليه، وعليه أن يكون مقنعًا للجميع أنّه عالِمٌ آثاري.

عَلِمَ من هي. كانت ابنة الشيخ، وتعمل على تثبيت قطع من الصوف حول أعناق النعاج كمحاولة لحماية تلك الكائنات المسالمة من أنياب الذئاب.

وجدها فرصة رائعة للاقتراب من تلك الشابّة. نهض، وقد عقد أمره على الاقتراب منها بذريعة أنّه يحبّ رؤية ما تفعله عن قرب، ويهمّه جدًا التقاط صورة لتلك العمليّة الوقائيّة التي يجريها البدو لأغنامهم.

شرحت له كيف أنّ الذئاب اعتادت، حين تنقضُّ على فريستها، أن تمسك بها من مخانقها، وتعضّها بأنيابها.

لم يكن معنيًا بما تقوله الخاتون عمشة، كان يريدها أن تطيل الحديث أكثر، لعلّه ينجح في قول ما يريده منها دونما كلام. كان محاطًا بقومها. لا خيارَ أمامه غير إطالة الحديث، وأطاله بالفعل؛ بينما هي انخرطت بشكل جادٍّ في شرح ما يحدث في كلّ ليلة تقريبًا.

كلّ يوم ثمة ضحايا بين تلك الأغنام تخطفها الذئاب، الذئب يعمد أوّلًا إلى تنحية الكلب، فيطارده أوّلًا، ويلعب معه لعبة بمثابة الفخ لأيّ كلب يواجه الذئب، حيث يجرّه بعيدًا عن الشياه لتتاح الفرصة لأنثى الذئب التي تراقب اللّعبة عن بعد، وتنقضّ حالما ينشغل الكلب بمواجهة الذئب، وتختطف أقرب الحملان إليها.

ركّز نظراته أكثر في عمق عينيها.. صمت هو، بينما هي ظلّت تثرثر عن الذئاب.

•••

أثاث غرفتي، كان سريرًا خشبيًا قديمًا، طرازه إنكليزي ومن خشب الأبنوس، في جواره آلة خياطة بدوّاسة ماركة سنجر مغطاة بملاءة بيضاء من الدانتيلّلا المخرّمة. وكرسيّ بلون أرجوانيّ أيضًا موديله قديم. الجدران بيضاء تمامًا، ونافذتان واسعتان تكشفان القرية، وأمداء واسعة من فيافي البادية. يمكن للبصر أن يعدو، يركض، لا شيء يوقفه..

لم أفكّر كثيرًا باختيار الجدار الذي سأعلّق عليه صورًا انتزعتها من الألبوم. لا أجد مفردة غير «الانتزاع» للتعبير عمّا فعلته بحقّها. كانت هناك، آمنة، في عتمة الماضي، هانئة بعزلتها، لا تريد أن تكون سببًا لشيء، تريد أن تظلّ محايدة، ترفض لعبة التذكّر والتداعي.

لكنّي انتقيتها بإصرار المجرم، علّقتها، سمّرتها هنالك لتلهمني. على شرفها، سأكتب نصّي القادم.

أرغمت بضع صور منزوعة من ظلمة الخزائن أن تتحمّل عزلتي وحزني، تمامًا كما يفعل الرسّام مع موديله، بالغطرسة ذاتها ثبتُّ الصور على الجدار.

أكتب ذلك «البعيد» المحبوس في جوف الصورة، ألمس شعر ياسر الكستنائيّ في صورة له خارجًا لتوّه من الحمام، شبه عار، ويمدّ لسانه هازئًا متمرّدًا، متعذّرًا بلوغه.

ـ ٤ ـ

«عيني صايبها سهر ونعاس يا ذيب»

ينفذ الضوء إلى نومي، استيقاظي ثقيل بسبب الأدوية المهدِّئة، يمرّ النهار في مهبّ الساعات البطيئة. أنهض، يربكني الغيم المتلبّد في وجه المستقبل. كلّ شيء حولنا كان يقول لنا: تأمَّلوا الأفضل واستعدُّوا للأسوأ.

الحزن لم يكن سوى تلك اليد الثالثة، تلك اليد التي تتخبَّط على بياض صفحة ممسوسة بقسوة النِّسيان ولذّته.. ستكتب وتكتب.

لم أنسَ قط تلك الأغنية التي كان يغنّيها لنا أبي كلّما سلك الدرب الترابيّ المؤدّي إلى ضيعتنا: «يا ريتني مرج أخضر ويجي الغزال يرعاني و.... ارجع ربيع ثاني».

يحدث أن نتمنّى أشياء وحالات غريبة! كيف لآدميّ أن يتمنّى لو كان عشبًا يانعًا بحيث يقضمه غزال؟!

تحوَّل أهل وطني إلى قطعان، الجميع محكوم بغريزة القطيع، ويمكن لكلّ قطيع أن يسير وراء أيّ مجنون لارتكاب أكبر الحماقات الدمويَّة، من غير أن يفهموا أو حتى أن يعارضوا.

اليوم، تعالى النواح على فتى يتيم أخرس وأطرش، قصد مدينة حماة على ظهر درّاجة نارية مهلهلة ليبيع منة بيضة جمعتها أمُّه التي اقتصر دخلها على بيع البيض. لم يسمع الفتى الأطرش تحذيرات الحاجز النظاميّ، فاعتقدوه انتحاريًّا أرسلته إحدى الجماعات الإسلاميَّة، فأردوه قتيلًا.

أمس جاء ابن عمّنا مدمّى، ويعرج على ساق واحدة، كان يقود سيّارة للعائلة من نوع كِيا بحوض واسع، فاستهدفه مسلَّحون يرفعون شعار الحرّيّة، على الطريق، لسرقة السيَّارة، لكنَّه كان أعند منهم، قاد السيَّارة رغم إصابته، وبالسرعة القصوى هرب ووصل القرية، وهو بالكاد يقوى على مقاومة الإغماء.

عالجه وائل، على نحوٍ إسعافيٍّ يسمح له بالإنتظار يومًا آخر ليقصد مدينة حماة.

كلّ الطرقات مفخَّخة بالقتلة. سيجدون الذريعة لقتلك.

الجرائم هنا تُرتكب في وضح النهار. لا أحد يخجل من الضوء، فجور استثنائي. المجرمون لا ينتظرون العتمة لإخفاء دماء ضحاياهم، إنَّه الفجور بعينه، تحت قبّة السماء الزرقاء والشمس المتوهِّجة، تُرتكب أبشع الجرائم!

خارطة تتقاسمها الديكتاتوريّات، ديكتاتوريّات من كلّ الأحجام. ولأنّ الأزمات غذاء مفضّل لهؤلاء، كبرت الأزمة السوريّة وتحوّلت إلى حرب طاحنة.

كلُّ ما يلزم: لحية. يكفي أيّ رجل أن يُطلق لحيته ويحمل مسبحة، ويردّد بعض الآيات القرآنيّة، ويكثر من الاستغفار والبسملة حتى يتحوّل إلى كائن مقدّس ممنوع أن يُنتقَد أو يُعارَض. لعبة التديُّن استهوت كلّ الآفاقين.

قبل أمس، عُثِرَ على أحد أقاربنا مقتولًا قريبًا من سيّارته المتوقّفة إلى جانب الطريق. حزر الجميع أنّها قضيّة ثأر قديمة. الثارات لا تنام عند البدو، ثعبان سرمديُّ الوجود.

يبحث الجميع عن خصوم. إنّه زمن الخصومات والعداوات. لا أحد يريد السلام. لماذا؟! لأنّ الفرصة متاحة للقتل دون حساب. الحقد هو سبب وهدف.

حتى العرف العشائريّ توارى، وسادت شريعة الغاب. أهرب إلى كتبي، أعيد قراءة بعض المقالات القديمة في مجلّة العربي، تلك التحقيقات المثيرة حول الأمكنة.. تحقيق حول الهند، وآخر حول زنجبار.. وبرفقة القهوة، يمرّ النهار ليأتي اللّيل، الذي ليس أفضل حالًا منه، وخاصّة أنّي أصبحت أعاني من الأرق على نحو مَرَضي.

ونحن صغار كانوا يقولون لنا لننام: «جاءتكم سُليمى». حتى اليوم، البدو يسمُّون الموت بـ «سُليمى»! ياسر كان يسأل عن مواصفات «سُليمى»: سمراء أم شقراء. تقول له فريال بصيغة الأمر: «نَم».

هنالك ربّات مسكوت عنها لدى البدو. تخمّن مرام أنّه لا بدّ من صلة ما بين «سليمى الموت» و«شلم اللات» الربّة التدمريّة. إنّه خبث الأنوثة الذي استعانت به الربّات، ليتسلّلن إلى الحاضر، بهيئة مثل شعبيّ، بعد أن استبعدتهن الذكورة وأزاحتهن عن ألوهتهنّ السابقة.

أغفو، أشدّ اللّحاف فوقي، أغطّي أنفي وأتخيّل سليمى امرأة جميلة، لها أجنحة قد تحوّم في أيّ لحظة! لكنْ في الواقع، لم أكن أرى إلّا تحويمات خاطفة للخفّاش، وتنقُّلات مباغتة لبومة بيضاء، تساكن أهل القرية منذ سنين طويلة. اختارت البومة لها مقرًّا يلائم طباعها، إنّه بئر رومانيّة قديمة محفورة في الصخر، لها فتحة بازلتيّة سوداء، جميعنا نتهيّب الاقتراب منها، حتّى في النهار خلال لعبنا، بسبب تلك الأفاعي

الطويلة التي يُقال إنَّها تخرج نهارًا إلى فتحة البئر لاصطياد فراخ العصافير. ياسر جرّني معه لفتحة تلك البئر. هو ينصب الفخاخ للعصافير، وأنا أراقب فوهة البئر الفارغة. البدو يقولون إنَّ شَعر المرأة الذي يُرمى قريبًا من فتحة بئر تحوّله الشمس إلى حيّات.

أفكّر بالسحر، أحاول تذكُّر بعض الوصفات السحريَّة للنوم. تلك التي سرَّبتها لنا يومًا ابنة امرأة يتهامس الجميع حولها أنَّها ساحرة. كان لها مهابة غريبة، كلَّما مرَّت أو عبرت يقولون عنها إنَّها مخيفة. كنت أرى كيف تتملَّقها بقية النساء وفي الوقت نفسه يكرهنها ويخشينها.

ذات مرَّة، كانت تتجوَّل وحدها بين بقايا بيوت طينيَّة داثرة. تبدو وكأنَّها تنقِّب عن شيء ما في الأرض. لحقتها أنا وياسر، وحالما لمحتنا، سألتها بكلِّ صدق ودون تردُّد: أريد أن أكون ساحرة.

الأفضل لك أن تثير الخوف في قلوب مَنْ حولك أفضل بكثير من أن تبعث الاطمئنان في جوارحهم. لا منطق غير هذا يمكن أن يحكم السَحَرَة. لهذا أحببت الفكرة.

لاحت ابتسامة خفيَّة على شفتيها الرقيقتين، وقالت بثقة من يقول شيئًا أكيدًا:

السحر ليس عصًا نمسكها، إنَّما أسرارًا نمتلكها. السحر الحقيقيُّ أن نكون طلاسم للآخرين، أن لا يفهموننا تمامًا، أن لا يحدسون نوايانا. علينا أن لا نثرثر كثيرًا. بعد سنوات، قال لي ياسر ملاحظة لا تُنسى: «العصفور يُكثر من الزقزقة الجميلة، يشدو طويلًا، يسمعه الصيَّاد بسهولة ويحدِّد مكانه، بينما لا يُسمع للصقر صوتًا، بالكاد بضع صرخات حادَّة لا يعرف مصدرها».

•••

يمكن لأيِّ تافه أن يقيم العدالة.

أنت لا تفهم، أبي.. كان ضابطًا في الجيش، وليس أنا!

أنت ليس إلَّا ما كان عليه: أبوك، أسلافك، أهلك، عشيرتك.

بسبب شهاداته في الطبّ من موسكو، سيحاكمه رجل بلحية ويحمل مسبحة، وستكون التهمة: أنتَ ملحد، شيوعيّ.. هذا بالضبط ما حدث لطبيب بدويٍّ، كان قد درس الطبّ مع شقيقي وائل في روسيا. قتلوه ثمَّ قطَّعوه. أوصلوه إلى أهله في كيس.

نحن البدو، نتلقى في دمنا سمًا اسمه: الثأر.

أدركتُ ذلك يومَ كانت سيّارة أبي اللّاندروفر تسلك دربًا ترابيًا يربط بين قريتينا، حيث يقطن أعمامي، وحيث يقطن أخوالي. الدرب بالكاد يصل طولها خمسة كيلومترات. لكنَّ اللاندروفر ستتوقّف قبيل بلوغ تخوم القرية بحوالى ٣٠٠ متر. لماذا؟! بسبب حكم صادر بحقّ عائلة أبي باكملها. الحكم أصدره عمّي.

تعود الحكاية إلى سنوات خمس أو ست، حيث قُتلَ أحد أبناء عمّي شابًا، ينتمي لعائلة تعيش في قرية أخوالي. كان في السابعة عشرة من عمره عندما كان يرافق قطيعًا كبيرًا من الماشية لعمّي، ومعه مسدس حربيّ عتيق يحمله احترازًا من الذئاب التي قد تهاجم الحملان الصغيرة قبيل المغيب. التقى ابن عمّي ذلك الشّاب. حدثت مشادّة عنيفة كتلك التي تحدث بين شابّين مراهقين. ابن عمّي استخدم ذلك المسدس المنحوس، وأطلق النار على الآخر بقصد تخويفه، كما زعم، لكنَّ الرصاصة كانت بدقّة قدرٍ مكتوب.. قُتِلَ ذلك الشابّ.

كان عمّي والد القاتل، هو القاضي، أي هو «العارفه» الذي يقرّر العقوبات والمصالحات بين العشائر، أصدر بنفسه الحكم: يُمنع على أيّ ذكر من عائلتنا من المرور بقرية أهل القتيل، تجنُّبًا لاحتمال أن تبصر أم القتيل أحد أقارب قاتل ولدها ويجتاحها القهر، وذلك لمدّة عشرين عامًا. لهذا، لم توجد سجون قطّ في البادية!

نفّذ أبي هذا البند بحذافيره. كان يوصلنا مع أمّي إلى تخوم القرية، فالسّيّارات نادرة، وستشاهد سيّارة أبي تخترق العرف القبليّ في وضح النهار.

في كلّ الظروف المناخيّة، علينا أن نقطع ثلث الدرب الطينيّ المثرب صوبَ منزل جدّتي.

عندما بلغ ياسر الرابعة عشرة من عمره، مُنِع من مرافقتي الى بيت جدّتي، يتسلّل بعد المغيب، لأنَّ الحكم يقع على كلّ الذكور البالغين. في اللّيالي الشتائيّة العاصفة، تنسلّ خلسة سيارة اللاندروفر مطفأة الأنوار، ببطء شديد، لتقلّنا ليلًا، دون أن تثير انتباه أحد من أهل القتيل.

كبرتُ، ومرّت السنوات العشرون، وظلّ لذلك الدرب مهابة.. إنّها مهابة الحزن.

•••

صوت حادّ! لم يكن عواء ذئب، إنّه زعيق رهيب لطائرة حربيّة تحلّق على ارتفاع منخفض تمزّق سكون الصبح الباكر. كانت قريبة. ظننتها ستلج البيت عبر النافذة.

أصبح عواء الذئبة الحزينة قبل ثلاثين عامًا، يتّخذ شكلًا فريدًا من الحضور اللّجوج، إنّه «الحِداد» الذي يلغي وجودي. الوفاء يحضّني على حمل «ياسر» داخلي. أعتزل البشر قدر ما أستطيع. أبدو كالممسوس بشجن دائم لا نهاية له.

وائل يسرّب لي بعض الأخبار المرعبة التي تحدث كلّ يوم حولنا.

الكره فاجر لأبعد حدّ، إنّها فرصة لا تعوَّض لمن تنطبق عليهم مفردة واحدة اخترعتها اللُّغة: «الرعاع». وحدهم يسودون الآن، فرصتهم الذهبيّة للانتقام، لتفريغ شهوة الإذلال. تاريخ من الذلّ عاشوه، الآن يتمّ التطهُّر منه عبر إذلال الآخر. هم غير مذنبين! هنالك من ملأهم بالحقد عبر سنين طويلة من الإهمال.

كنت أرى أنّ بعض العيون تحوَّلت إلى قذائف هائلة من الكره، ستطيح بنا في أقرب فرصة. يزورونا ليشمتوا، ليفرحوا بدموعنا. الآن فقط قد يغفرون لنا أصوات ضحكاتنا التي كانت تضجّ في هذه المزرعة. سينتقمون دونما إحساس بأيّ قيد من قيود الشرف أو المنطق أو الأخلاق..

كنت أدرك أنّنا نواجه أقوى إحساس حرّك التاريخ يومًا: إنّه الحقد.

خائفة، والخوف أقوى من الذكاء، وحليف للغباء.

على الشرفة، عبر صديقي الأثير «المنظار»، أراقب سيّارات محمّلة بأغراض الرحيل. هنالك من بدأوا بالرحيل صوب تركيا. لماذا تركيا؟ لأنّها الطريق البرّيّ الوحيد المتاح للأهالي. سمعت ابنة عمّي تروي لأمّي عن عائلة لديها خمس بنات جميعهن جميلات، وقريبًا سيجبرن على ممارسة ما يُسمّى بجهاد النكاح، سيتمّ تزويجهنّ ـ في الواقع اغتصابهنّ ـ عدّة مرّات في اليوم الواحد، وذلك تطبيقًا لشرع اللّه كما يزعمون.

الجميع يخاف النقد، إنّه كفر تُعاقب عليه، ستُتّهم بالزندقة حالما تظهر عليك أمارات التشكيك، ستكون كافرًا. أنا الديكارتيّة الشك، كان عليّ أن أصمت!

عليك أن تكون مؤمنًا، صرّح بإيمانك بكلّ شيء، بكلّ ما يحدث

حولك، من قتل وافتراء وبذاءات، وإبادات، وقتل جماعيّ.. إن لم تفعل ستُتّهم بالعمالة للشيطان.

اليوم، زارتنا إحدى قريباتنا، سرعان ما تحوّل وعظها صراخًا فتّاكًا، عندما رأت الدموع في عينيّ.

أهمّ إنجازاتها طوال حياتها، كان الاعتناء بأغنامها ومعزاتها، لم تدخل يومًا مدرسة. حفظت آيات قرآنيّة بالمقلوب وقذفتني بها، كيفما كان. في أقرب سلّة مهملات رميتُ شهاداتي العليا في الفلسفة، وصمتُّ رحت أستمع لتلك المفكّرة الخارجة من الزريبة، وهي تملي عليّ أسلوب البكاء على الشهداء. سمحتُ لتلك الدكتاتورة المتبرعمة لتوّها، أن تمرّغني بأوحال كلامها.. فالجميع عملاء بارعون، قد تشي بي لإحدى الجماعات الإسلاميّة، قد تقول إنّها لمحت بريقًا مشكّكًا في عينيّ، مشكّكًا بتعاليمها. التزمت الصمت، وأنا أخشى أن يُنسب إليّ كلامٌ ملفّق، فأنا لا أتفوّه قطّ أمام الحمقى. فهم بكلّ الأحوال لا يحبّون الصمت، ولا يسمحون لأحد غيرهم أن يتكلّم. تركتها تتكلّم، تناثر لعابها في المكان، تحوّل إلى رذاذ مجبرون على تقبّله، حتى يخطر لها أن تُنهي زيارتها المبجّلة. لم نتذمّر أيضًا، من رائحة الزبل التي تفوح منها، وقد فاحت أكثر بفضل هتافها في سبيل اللّه. أخيرًا، ألقت علينا محاضرة عن «الشرف»، كانت مؤيّدة بشدّة لذبح فتاة من عشيرتنا، رأت في الفوضى التي تعصف بالبلاد فرصة للهروب أخيرًا مع شاب تحبّه منذ حوالى خمس سنوات. هربت معه، بعد أن أجبرها أهلها على ممارسة نكاح الجهاد، رأت أنّ لها الحقّ باختيار من تريده حبيبًا لها، لحق بها رجل أفريقيّ بالكاد يتكلّم العربيّة، وذبحها مع حبيبها على مرأى من الجميع، وطبعًا أمام أهلها الطيّبين.

من هم الطيّبون حقًّا؟ تسألني مرام وتضيف: «أحقًّا، هذه المرأة التي زارتنا للتوّ طيّبة وحمقاء أم أنّها حمقاء وحسب؟!» على ثغر مرام يرتسم طيف ابتسامة مشكّكة بما رحت أحكيه، حول أنّ الطيبة هي الذريعة المثلى للإبقاء على كلّ شي على حاله، سيثرثرون عنك إذا أردت أن تجدّد أو تغيّر، أن تصبح معاصرًا، بشكل ما. فهؤلاء الطيّبون جاهزون لإفساد سمعتك وحياتك بثرثراتهم. جميعهم شرطة، وهم القانون، علينا أن نحتشم في قول كلمة لا. أن لا نخدش حياء الطيّبين المهيب. هؤلاء الطيّبون يذبحون النساء باسم الأخلاق والشرف الرفيع. الطيّبين يصدّقون ويكرّرون الفضائح بحيويّتهم الفائقة، وهم يتشدّقون بالواجبات الأخلاقية والمثل العليا التي وُجدت بسبب الأوهام.

ما أكثر النساء الهاربات هنا لأجل الحبّ! هاربات من براثن آلاف من السنين المثقلة بالدّين والتعصُّب. هنا، كما الحال في كلّ الشرق، كلُّ شيء يؤيّد سيطرة الذكور على الإناث، كما كان الحال مع سكان الكهوف. خُلقت المرأة لتكون ذلك الشيء الناعم والسمين والمريح كوسادة يرتاح عليها الذكور الأبطال، عندما يؤوبون إلى البيت.

وَنْسَة الأيزيديَّة، قبل ثلاثين سنة، كانت هاربة. أهلها سيقتلونها لو أمسكوها، لأنَّها وقعت في غرام شابٍّ بدويٍّ كان يقصد جبل سنجار لقنص الصقور. هربت معه، لكنَّها لا تريد أن تبقى كلّ حياتها هاربة! لهذا، جاء بها حبيبها إلى عمّي ليحلّ له قضيَّته، عن طريق مراسلة أهلها، للوصول إلى حلّ. وخلال تلك المدّة التي استمرَّت حوالى سبعة أشهر، كانت وَنْسَة دخيلة عمّي، وتعيش في منزله مع بناته الشابّات، وتشاركهنَّ أعمال المنزل كواحدة منهنّ.

كلّ يوم، تجتمع الفتيات وراء قُبّة طين متهالكة في بقعة نبت عليها العشب، حيث يشكّل الفيءُ الخلفيُّ للقبّة ظلالًا رائعة للجلوس والتمتُّع في الوقت نفسه بنسائم الربيع والآماد المفتوحة.

تروي لنا وَنْسَة عن حياتها في قريتها في جبل سنجار.

وَنْسَة تتكلَّم، وتستعرض حياتها السابقة مع بنات عمّها. تتكلَّم وفي ذاكرتها طرطقة العصيّ الخشبيَّة، بينما هنّ يخبطن غسيل العائلة عند ينابيع الماء، أكاد أشمّ رائحة قطع الصابون الكبيرة التي تصنعها عائلتها من زيت الزيتون.

نساء يعملن في الحقول، يطحنَّ الحبوب، يخبزن، يحلبن المواشي، يصنعن الزبدة، يجِكْنَ، ينظِّفن، يخطنَ، يغزلْنَ. يستعطفن روح الشرّ، رئيس الملائكة السبعة المكلَّفين بحكم الكون «طاووس ملكيّ»، أو كما تسمّيه بلغتها: «مالكا تاووسا»..

حتى هذا اليوم، أرى قباب المقامات اليزيديَّة المخروطيَّة والمطليَّة بالكلس ترتفع فوق بساتين الزيتون المحيطة بها، كما وصفتها لنا وَنْسَة.

أرى وَنْسَة تحضِّر الشاي، بإيقاد الخشب في كانون نار تحت الظلّ المتغيّر لأشجار الزيتون، ثمّ تصبُّ الشاي في الكؤوس المخصورة في الوسط، والتي يسمُّونها «استكانات».

يأتي المساء، نتحلَّق حول وَنْسَة، وهي تحكي لنا عن الدار الكبيرة التي كانت تقطنها مع أسرتها.

كان يسمى بيتًا، لكنّه في الواقع يشبه قرية صغيرة. كانت دارًا مسوَّرة واسعة، تسكنها عائلات الأبناء المتزوِّجين. لا يقتصر سكّانه على البشر، إنّما الأغنام والماعز والبقر تقطن في طابق تحت مستوى الأرض. وَنْسَة كانت تشارك في نشاطات مختلفة تجري في تلك الدار: عصر الزيتون، صنع الصابون، الطحن، الغزل، الخياطة، التطريز. تلك هي الأعمال الأسهل، فهنالك أعمال أكثر صعوبة، وذلك عندما يحين دورها في تنظيف وتوضيب صناديق التخزين الطينيّة تحت الأرض، حيث مخازن تضمّ صناديق التخزين المصنوعة من الطين المجفَّف المخلوط مع القشّ. أحيانًا، عليها أن تخلط طينًا طريًّا وتعجنه مع عدّة فتيات أخريات، ومن ثمّ يزخرفن أو يرمّمن ما تَلِفَ من الزخارف التي تزيّن تلك الخوابي المستطيلة الضخمة، التي تحوي العدس والفول والتين والحبوب. أو فإنّها.. ستشارك في طحن السمسم.

في تلك الغرف المعتمة التحت أرضيّة، كان السمسم يُسحق مسبقًا في الباحة المكشوفة فوق بالرحى الحجريّة الأسطوانيّة الشكل، والمربوطة إلى وتد مركّز على مصطبة عالية، وهنالك قضيب خشبيٌّ يربط الوتد إلى بغل قويٍّ، يدور ويدور حول الرحى. بعد ذلك، يأتي دور وَنْسَة ورفيقاتها بتحميص السمسم قليلًا حتى يصبح كثيفًا وزيتيًا، فيُرفع جزءٌ منه لحاجيّات المنزل ليضاف إلى المربّيات والخبز أو العسل. والباقي يُصبّ عليه الماء ويُفصل زيته ويُخزَّن بعناية كبيرة، وأمّا الراسب، فإنّ الفتيات يعرفن كيف يحوّلنه إلى شيء لذيذ يُخلط مع التين المجفَّف ليكون مؤونة الشتاء.

أمّا عندما يحين دور الخدمة في الغرف العلويّة، فإنّ وَنْسَة تصنع الأجبان وتجفّف الفاكهة وتجفّف أوراق الكرمة وتُضمُّ بخيطان وتُعلَّق على جدران غرف المؤونة. أمّا القمح فيُسحق تحت الرحى لصنع البرغل.

تحدّثت طويلًا عن أيّام الصيف الرحبة، حيث تتشارك مع الفتيات في عمليّة ملء قوارير ضيّقة العنق بالفاكهة والتمور والجوز، أو عمليّة فرز الصابون.. الناعمة للاستحمام، والخشنة مصيرها الحجارة الخشنة على بُرَك الغسيل.

كنت صديقة لصيقة بوَنْسَة. كانت تستأنس بوجودي قربها، لأنّي أذكّرها بطفلة هي ابنة شقيق لها، وكانت المفضّلة لديها. وبالنسبة لي، كنت معجبة بوَنْسَة لأنّها تحضُر أطيب وألذّ الفطائر.. وكان ياسر يلاحقها، لأنّه وجد قصصًا جديدة تقصُّها، غير تلك التي تحكيها فريال.

وجدت وَنسَة ضالتها في التنُّور، وهو فرن ترابيٌ مقعَّر يُسخَّن مسبقًا بحرق الروث أو الحطب في أرضه. تقضي نهارها ويداها غاطستان في وعاء كبير من صفار البيض، حيث تكون مهمَّتها دهن الفطائر بالبيض لتكتسب اللَّون الأصفر، أو لأجل لصق الكعك على جدران الفرن، أو تخلط الحشوات بمقادير سليمة من الجوز والسكر والزبيب والقرفة والزبدة. كانت كذلك، بارعة بالعجن لتحضير أرغفة الخبز الرقيقة.

في الصباح، عندما تنثر الحبوب للدجاجات، تحكي لي ولياسر عن الساحة التي كانت في دار أهلها. الساحة التي تتقاسمها الدجاجات والديكة مع البط الذي يسبح في بركة كبيرة، تغذِّيها نبعة تصل الدار عبر فتحة مستطيلة من الجدار، تسمح بخروج البطّ ودخوله. وعدّة حمير مربوطة قريبًا من بوّابة الدار التي تظلّ غالبًا مغلقة، بينما يُفتح باب صغير يسمح بمرور البغال والحمير والماشية بسهولة، وعدّة كلاب كبيرة كسولة مشعَّثة، تهرش على نحو مستمرٍّ بسبب القرَّاد والبراغيث.

جميعنا محكومون بذكريّاتنا، والهاربون هم الأكثر تعلُّقًا بتلك الذكريات.

إنَّه ظلُّ وَنسَة، يقع هناك على جداري مثبّتًا إلى الأبد، يوم توقَّف الزمن والتقط لنا تلك الصورة الجماعيَّة في منتصف الثمانينيّات، صيادٌ لبنانيٌ أخذها بكاميرته الفوريَّة، ترك لنا الصورة. جميع من في الصورة غادر بشكل ما. ياسر بدا مواربًا من خلف ثوب فريال، يطلُّ برأسه كمن يطلُّ من شرفة بعيدة. بقيت الصورة لتؤنِّث نصي القادم، لأكتبها، لأرمي الزمن بسؤال: لماذا قُتلت وَنسَة؟ لماذا قُتِل ياسر؟ ولماذا أنفخ الحياة في صورة ميّتة بشكل ما؟ منتهية مغادرة ومغدورة. لماذا أنا هنا أمام هذه الصورة؟! هذا النسخ المضبوط للحظة، مرّت وعبرت وتلاشت؟!

•••

ممنوع ابتلاع شربة ماء. إنَّه رمضان، والصوم إجباريّ. في الوقت الذي يفرض علينا ابتلاعُ كلَّ فجورهم الذي أشهروه فجأة في وجوهنا. إذا بقينا هنا أكثر سنذهب ضحية تفجُّر غوغائيٌ لا يرحم.

إنَّه لشيءٌ فظيع أن يستبيح الناس حزنك. يقطع صوت وائل سلسلة مخاوفي، ويطالبني بالنزول للشرفة الأرضيَّة لشرب الشاي مع أبي وأمي ومرام. أترك المنظار، وأنزل..

شاركتهم شرب الشاي، وأنا أرتجف خجلًا من خوفي وارتباكي

ويأسي وأعصابي التي هربت منّي. ما الذي يحدث لنا.. لعائلتنا؟! هل هو تدبير ربّاني؟ هل هو مؤامرة، هل هو إنذار مشؤوم..؟ كلُّ ما حدث بذريعة التعزية كان شماتة.

هل سيأتي يوم يُسمح لي بالانتقام؟ هل غدوت أشبههم؟! لم أعد أفكّر بغير الانتقام. تحوّل الانتقام إلى شهوتي الوحيدة والمؤجّلة. هل سأسامحهم على طريقة المتفوّق إزاء المتخلّف؟! جميعهم متخلّفون، لا معنى حتى لمحاسبتهم أو لمسامحتهم. هم هكذا نتيجة إهمالٍ متعمّد ومقصود، فالتخلُّف مطلوب ليتسنّى للأقليّة المستفيدة حكمُ الأكثريّة. كنت: مصدومة، مقهورة، ممزّقة.. بل حزينة، حزينة، حزينة.

الحزن يلازم أيّامنا ويُتمُها.

لا يمكن للأموات «الحقيقيّين» أن يموتوا إذا ظلّلنا نفكّر بهم، فذاكرتنا متّصلة بهم، وأعمالهم بقيت لدينا، مثل كلّ ما فعلوه وتركوه وراءهم. إذا توقّفنا عن الهجس بفكرة أنّهم ماتوا، فسوف نستطيع أن نهزم الكثير من العوائق التي نبنيها بين الأحياء والأموات، وسنتمكّن من العيش معهم من خلال الذاكرة. ولست أعني فقط ذكريات الماضي، أي كلّ ما كان قيد الوجود يومًا ورحل.

ليس ثمة خط فاصل بين الأمس والغد، بين ما نخترعه وما نلمسه. كلّ ما نصدّقه يصبح حيًّا.

الأمس الصاخب والهجوميّ والتعسّفيّ يبدو وحشًا يقتات على يومنا وغدنا.

هذا الحزن أكتبه، لعلّي أضع حدودًا له كي يزايلني، كي أنتحب ورقيًّا..

أنا من أقدّر الزمن، الحياة، الأيام، وأقدّس الوقت.. أتنفّس اللّحظات المتاحة كلّها، كلّ لحظة فريدة ومختلفة، لا أسمح لأيّ لحظة منحتها لي الحياة أن تضيع في الغفلة.

احترت كيف أهرب من الحزن! كيف أزوغ من وجعي؟ أستاذي الأوّل في الروغان كان «البحر» البارع، الذي سبق صحرائي بعض الشيء في تلقيني مبادئ الزوغان من التيّارات، وأصول السباحة في وجه الموج دون أن أغرق.

رماني أبي في البحر، وصاح بي: إسبحي، من لا يعرف السباحة

سيجد نفسه ذات يوم على مركب في قلب عاصفة، والسباحة في تلك الحال أفضل من التعلُّق بقشة.

بعد سنتين اثنتين، لاقى ياسر المصير ذاته. رماه أبي في الماء، وخلال أيّام كان يستطيع اللّحاق بي سباحة.

من بين الروائح الأثيرة لأنفي: رائحة البيرة، أنفي يشمُّ هذه الرائحة عبر مسافة سنوات طويلة، كذلك طعم المكسّرات المملّحة يعشش في فمي. لم يكن مسموحًا لطفلة لا تتجاوز الخامسة من عمرها أن تشرب البيرة، أو أن تتذوَّق مشروب العَرَق، لكن كان مسموح أن أشمَّ فقط، وأتسلّى بالفستق المالح على مائدة تضجّ بلعب الورق وضجيج كؤوس الضباط الشباب. كان أبي برتبة رائد.. أسمر، بعينين عسليّتين وقامة معتدلة قويّة. أنا وياسر نتلصص على غراميّاته العابرة يوم كان شاطئ نادي الضباط في اللاذقية يعجّ بنساء يتبخترن بالبكّيني. تعلّمنا مبكرًا، أنا وياسر التواطؤ معه، لم نثرثر يومًا لأمّي أيّ شيء حول النساء شبه العاريات اللّواتي كنَّ يحمن حول أبينا في النادي. بالمقابل، نضمن مرافقتنا له في كلّ رحلاته. كلُّ زملائه اعتادوا رؤيتنا.

حتى خلال شهور الشتاء، نكون حاضرين. نرافق الأب خلال فترة بعد الظهر. بسرعة عجيبة، ننجز فروضنا المدرسيّة ونرتدي ثيابنا. أسرّح له شعره، وهو يربط لي عقدة فستاني من الخلف على شكل وردة. وسرعان ما نأخذ مكاننا إلى جوار أبينا. أنتقي شريط كاسيت وأدفعه إلى المسجل، وسينطلق حتمًا صوت ربابة يرافقه صوت غجريّة تغنّي «هجيني» بدويّ.

لم يعدم أبي الحيلة لإبعادنا عنه قليلًا، أقنعنا أنَّ السباحة ممكنة في كلّ الأوقات في البحر، أوائل الخريف وأواخر الربيع. خلال الشتاء فقط ننجو من محاولات دفعنا إلى البحر. لكنْ، إذا كان الطقس دافئًا ومشمسًا، عندها سيتوجّب علينا اللّعب بالرمال. وسنفعل ذلك بطيب خاطر حتى نضمن مرافقته دائمًا.

إذن، لا خيارات أخرى غير الرمال. بزغت الرمال مبكرًا في حياتي. تلك الحبيبات الزائغة الماكرة، التي تمنحنا مجد بناء القصور، وبلحظة مباغتة تنهار وتتركنا مذهولين من لحظة الفشل.

مبكرًا مزّنني أبي على النجاح والفشل، منحني كلَّ رمال شاطئ النادي: شيّدي ما شئتِ من القصور.

الشاطئ مليء بأطفال غيرنا. جميعهم يجتمعون ليشيّدوا قصرًا

فخمًا كبيرًا، وأنا وياسر نصرّ على أن يكون لنا قصرنا الخاصّ. سرعان ما بدأت الشكوك تحوم حولنا، عندما أصبحت تلك القصور الرمليّة الساحرة تنهار وتخرّب، حالما يدير أولئك الأطفال ظهورهم لتناول طعام الغداء مع ذويهم.. لم نعترف قط. مظهري المسالم وملامح ياسر البريئة دفعت زملاء أبي لإقناع أهالي أولئك الأطفال أنّ طفلين بهذا الكمّ من البراءة لا يمكن أن يفعلاها. أخيرًا، حين فشلنا بتشييد قصر ينافس قصور الآخرين، قرّرنا استفزازهم وهزيمتهم بأيّ شكل: شيّدنا «قُبّة» كتلك القباب الطينيّة البعيدة في وطننا القصيّ النائيّ المجرّد من الأشجار.

لم يكن الأمر صعبًا. بنيتُها بمهارة، دبّبتُ هاماتها ببراعة، وجمع لي ياسر الحصى الملائم لتحديد ملامحها، وأصبح ذلك البناء الغريب مثار اهتمام الجميع. الأمّهات كنّ يسألنني عن تلك الأبنية الغريبة، وأنا أجيب بتواضع ولامبالاة أنّها أبنية في أرض خارج سوريّة، رأيتها في إحدى زياراتي إلى المكسيك! متأثّرة بفيلم كرتونيّ عن الألدرادو، يبتسم ياسر كمن يخفي سرًّا فظيعًا.

صعب جدًّا على أيّة حقيقة أن تمتلك سحرًا يضاهي سحر الكذب. عرفت ميزة الأكاذيب مبكرًا، كلّ تلك القصور الرمليّة الرائعة التي كان يبنيها أطفال الشاطئ قدّمت لي كل الذرائع المتاحة لاستلهام الكذب.

الآن، عليّ استلهام صبر ذئب حزين.

استلهام صورتي المعلّقة على الجدار بأناملي أنا، خطفتها من الألبوم وثبتُّها بين الصور الأخرى، بلونين فقط: الأبيض والأسود، وبلباس السباحة.. أبتسم لأبي.

ابتسمي، الأمر الوحيد الذي تلقّيته من أبي: ابتسمي.. ابتسمي.. لن أحظى بصورة وأنا عابسة.

•••

اليوم، جاء «نسابة» ليصون ذاكرة جدودنا، فالجدود الذين تفصلنا عنهم بعض الأجيال فقط، يختلطون في كرة غائمة من الأسماء. أحدس أنّ ثمة انقلابًا اجتماعيًا قادم..

فالرغبة في الانتماء إلى سلالة أسلاف نبلاء، تجتاح الجميع. أصبح البحث عن الهوية أشبه بوسواس قهريّ. كلّما ابتعد الأشخاص عن أمكنتهم ينقّبون عن جذورهم، منذ ذلك اليوم الذي بدأ فيه أبناء العشائر التغرّب،

ظهرت لوثة «الأنساب»، شجرة عائلة ممهورة بأختام سلطانيّة من الآستانة. رهانات الهوية تُخضع مستقبلنا لماضينا.

فسكّان القرى والمدن ذوو ذاكرة للأنساب ذات عمق ضعيف، في حين أنّ ذاكرة السكّان الرحّل ذاكرة متينة وعميقة جدًا، لتعوّض غياب التجذُّر في مكان.

استمعت للنسّابة وهو يشرب الشاي في مجلس أبي، ويوثّق لتاريخ متحيّز، يقتبس ما يريد ويتناسى ما يريد. يعيد تركيب الماضي من قطع منتقاة. سمعته يقول إنّ نسبة اسم عشيرتنا «الجميلة»، لجميل، أحد الفرسان الذين رافقوا أبا زيد الهلالي! طالما الأمر كذلك، لماذا لم نرافقه إلى تونس؟! لماذا بقينا هنا؟!

أضناني هذا الحديث الطويل عن الأجداد. نحمل الأسماء نفسها، نتوارث الحزن ذاته، والثأر، والحقد. كلّ يوم ينضح ماضينا مزيدًا من الأسى. ما السبب؟ التراث؟! هذا التراث يتحكّم بنا. وتخنقنا عبارات تشدّق بها الأسلاف ذات يوم، قالوا كلّ ما يغذّي جذوة حروب اليوم، القتل والجثث المرميّة في الطرقات.

صعدت الطابق الثاني، ملاذي الآمن حاليًا، وجهتي المطبخ وركوة القهوة. من النافذة، لمحت اثنتين من بنات عمّي يلجن بوّابة المزرعة، سيطلبن رؤيتي، وستتكفّل أمي بإبعادهنّ عنّي.

فلا مزاج لي لسماع تزهات «الأستذة» من الحمقى. لا يعرفن القراءة أو الكتابة، لكنّ الدروس الدينيّة الشفاهية التي خضعن لها مؤخّرًا، ستجيز لهنّ مناقشتي، واستفزازي لقول شيء سيكون ذريعة لمحاكمتي على الملأ. تمامًا، كما حدث مع الطبيبة الوحيدة في المنطقة. وشت بها قريباتها الأمّيات للجماعات الإسلاميّة أنّها لا تصوم رمضان. نحروها كخروف. صببتُ قهوتي، وأنا أزفر سأمًا عتيقًا، سأمَ من وُلِدَ وعاش في بلدٍ أولوياته مراقبة شعبه. إن لم تراقبك الأجهزة الحكوميّة، فسيراقبك جارك أو جارتك أو البقّال أو الزبّال، وحتى أستاذك في المدرسة أو زميلك في الصفّ.. الكلّ جواسيس. أنت مُدان سلفًا قبل أن تفعل أيّ شيءٍ، عليك أن تخضع لـ الصحيح «اجتماعيًا، وسياسيًا ودينيًا»، من دون تذمُّر.واذا أردت أن تتمرّد قليلًا، فاستتر. إنّه البوليس الاجتماعيّ الذي يتبرّع بمراقبتك وإطلاق الأحكام عليك، سواء رضيت أم رفضت.

من يفسّر مفعول رائحة القهوة؟! رائحتها حاليًا الرفاهية الوحيدة

المتاحة لي.

وحدها تلك الفجوات التي تنفتح فجأة على فصل من طفولتي، كأنْ ترى أحدهم يمز فجأة.

أركض هربًا من زفيف الجنّ، أجمع العصيات الخشبيّة لأصنع دمية، رميتها جانبًا «باربي» الزهريّة الألوان، الشقراء والمتأنّقة، وقرّرتُ أن أصنع لعبتي بنفسي. تمامًا، مثل كلّ الفتيات الصغيرات هنا. البدو يسمُّونها «عَاجَة». أردت عاجتي، رفضت العاجات المقدَّمة بكرم من قبل ابنة خالي.

أوّلًا، ينبغي أن أحدّد حجم وطول العصاة، لأعرف القماش الذي ألزمه لأسربلها به. كان ياسر جاهزًا للمهمّة. جلب لي عددًا كبيرًا من الأخشاب الطويلة والقصيرة ومتوسطة الطول، بعضها مهترئ وبعضها مكسّر. باختصار، وضع أمامي كومة من الأخشاب والعيدان.

انتبهت إلى أنّ البدويّات يلبسن الكثير من الأقمشة. ابنة خالي الكبرى، شابّة جميلة، تقضي وقتها في خياطة الثياب الفضفاضة التي ترتديها الشابّات. كان أمامي تلٌّ هائلٌ من بقايا الأقمشة غالية الثمن مخامل، ساتان، قطيفة دانتيلات، قطنيّات ومخزمات متنوّعة. انتقيت قطعة من المخمل القرمزيّ، لأجعلها ثوبها الخارجي، وللباسها الداخليّ قطعة كتّان بيضاء، ولرأسها اخترت تخريمات ذهبيّة مع دانتيل أسود، عقدت على أعلى الخشبة العصبة المثلّثة التي يسمّيها البدو «شُظفة»، ورسمتُ لها وجهًا لا يشبه باربي الخالية من الملامح، إنّما حدّدت عينين واسعتين مثل العينين المطرّزتين على مخدّتي، عيني عبلة حبيبة عنترة، وضعت لها أسفل ذقنها شامةً ووشمًا في منتصف جبينها.

احترتُ ماذا أسمّيها! دفعت بها أمام بنات خالي اليافعات.. تلك التي أعطتني الأقمشة، نظرت في وجه عاجتي المرسوم، وقالت إنّها جميلة، لكن رهيبة كجنيّة.

أسميتها «جنّيّة»، بناء على نصيحة وَنْسَة الأيزيديّة. كانت تمسك بعاجتي تلك، وهي تروي لنا حياتها في الدير.

كانت وَنْسَة، واحدة من الراهبات الثلاث بعمائمهنّ وأغطية رؤوسهنّ، والمرتديّات ثيابًا طاهرة من الرأس إلى القدمين، يكمّلن الصورة. يتحرّكن كالأشباح التي لا أجسام لها، يزرن المزارات أو يجلسن يفتلن بمغازلهنّ، ويجدلن صوف خروف أبيض، يصنعن خيوطًا لعباءاتهنّ، أو قطنًا أبيض لفتائل المصابيح.

كلّ صباح ينطلقن في رتل أحاديٍّ، مع رئيسة الدير، في رحلة حجٍّ حول الكثير من المزارات، يقبّلن الحجارة بورع، بينما يجتزنها حافيات.

ذات مرّة، كانت وَنْسَة تمشي وراء سيّدة الدير، فأغرتها أزهار شقائق النعمان، انحنت بعجل واقتطفت بضع زهرات، وشكّلتها بعمامتها. عندما انتبهت رئيسة الدير لما فعلته وَنْسَة، خمّنت أنّ الفتاة صاحبة العينين الواسعتين والأهداب المثنيّة للأعلى تتذكّر أفراح الأعراس والدبكات التي هجرتها إلى الأبد.

كانت رئيسة الراهبات لا تثق مطلقًا بنساء تتثنّى أهدابهن للأعلى، وكذلك حاجبا وَنْسَة يشبهان هلالين مقلوبين، وهذا ينبئ عن امرأة عاطفيّة وكذلك بشفتيها الممتلئتين، وأنفها المكوَّر كأنف طفل، وأصابع يديها الممتلئة.. كلّها صفات تدلّ على امرأة حسيّة.

كانت الشمس تتحكّم في برنامجها اليومي، دون أن يخبرها أحد قطّ أنّ الرجل المدفون في المعبد «عُدَيّ بن مسافر»، الذي تخدمه، وُلِدَ حوالى القرن الحادي عشر في بعلبك، المدينة التي كانت تحتضن معبدًا عظيمًا للشمس.

تمرّ وَنْسَة بورع كبير أمام ذلك النقش النافر للحيّة السوداء، في ذلك الوادي الذي يُسمع فيه خرير كثير من الجداول.

كانت تخرج من تلك الغرفة المخصّصة لحفظ الخبز المقدّس، والتي يحميها نحت بارز لأسودٍ يقابل واحدها الآخر بفكّين مفتوحين، لم تكن تعرف أنّه في ذلك اليوم الذي اختارتها راهبة الدير لمرافقة سيّدة أجنبيّة، تزور المعبد وترسم نقوشه برفقة رجل بدويٍّ مسلّح يحرسها بحذر، أنّه سيتغيّر مصيرها.

لم يُحرّك ذلك البدويُّ الأسمر ساكنًا، بينما الراهبة المبتدئة تمرّ قرب الشابّ البدويّ، ظنّت أنّه سيفسح لها مكانًا لتمرّ، لكنّه ظلّ في مكانه. وجدت نفسها تقريبًا بين ذراعيه. لذعتها حرارة جسده. هل تعمّد ذلك؟

كانت ترافق السيّدة الإنكليزيّة الشاحبة، وهي ترسم الواجهة الغربيّة من المعبد في الفتحة فوق الباب، هناك صورة لقرص الشمس الملتهب، وهذا القرص يحتوي في داخله هلالًا ونجمة خماسيّة، وعلى كلا الجانبين نقوش باللُّغة العربيّة، تسجّل أسماء المانحين الذين رمّموا أو أعادوا بناء المكان.

كان يراقبها من بُعد، وهي تأخذ السيّدة الفضوليّة في أنحاء المزار.

ابتسم لها وهي تثبّت عقربة كبيرة برزت لهم على نحو مفاجئ بين عصاتين، وبعناية كبيرة ثبّتت العقربة ونقلتها خارج أرض المزار. وهي تشرح لهم أنّه لا يجوز أن يُقتل أيُّ مخلوق في ذلك المكان المقدّس. وفي الخارج، حيث بقعة أقلّ قداسة، أطلقت سراح العقربة مبرّرة ذلك بقولها: لم تؤذ أيًّا منّا، فلِمَ نقتلها؟!

ذات اليوم، مساءً، تسلّلت باتّجاه مزار ينتصب على سفح تلّة مطلّة على مزار الشيخ عُدَيّ، حيث تتناثر عدّة مزارات أخرى مبنية بالحجارة دون أبواب، لكنّ ثمّة مزارًا بعينه اسمه مزار العقرب، مزارًا مزيّنًا بصورة للشمس، يحوي قرصها الداخلي ثلاثة عشر شعاعًا، وبجانب الجدار الشماليّ للمزار تنمو شجرة بطم قديمة يُقال إنّ لأوراقها خاصيّة شفاء عجيبة من أمراض العيون؛ ومقابل تلك الشجرة هنالك الجدار الذي حُشيت فراغاتُه بحجارة وحصيّات صغيرة، يضعها الزائرون وهم يتمنّون أُمنية.

بدقّة، ثبّتت وَنْسَة حجرًا صغيرًا في إحدى الفجوات، وتمنّت أمنيتها.

ولضمان تحقيق أُمنيتها، كان عليها أن تقطع ممرًا شبه تحت أرضيّ لتصل مكانًا آخر، يُقال إنّه أيضًا يحقّق الأمنيّات.

شجرة توت ضخمة يندفع من تحتها شلّال ماء هادر، وقبالتها غرفة كبيرة مقنطرة في جدارها الشرقيّ حفرة، يُعتقد أنّه إذا وقف شخص على بعد حوالى خمسة عشر خطوةٍ، ومدّ ذراعيه ويديه أمامه وأغلق عينيه، وخطا إلى الأمام على نحو أعمى، ونجح ثلاث مرّات في إدخال رؤوس أصابعه في الفجوة، دون لمس الجدار نفسه، فإنّه سينال أُمنيّته. فعلت وَنْسَة كلّ ذلك لتضمن تحقيق أُمنيتها المحرَّمة.

في تلك الليلة، وخلف كومة كبيرة من خشب السنديان مكدّسة ومحفوظة بعناية في مكان جافٍّ من أجل شيّ لحم العجل الضحيّة في موسم عيد الخريف الكبير، خلف تلك الكومة، رماها الشاب البدويُّ، وأضطجع فوقها. كادت تذوب تحت حرارة جسده. رمى بكامل ثقله عليها. في تلك اللّحظة، احتارت أيّ مزارٍ لبّى أمنيتها بتلك العجلة! هل كان مزار العقرب؟ أم تلك الفجوات بين الجدار المقابل لشجرة البطم؟ أم شجرتا التوت؟! لم تفكّر كثيرًا بحقيقة من كان وراء تلك اللّيلة، خلف خشب السنديان. عندما نهضت، علمت أنّها تحوّلت إلى امرأة، وأنّه لا مكان لها بين الراهبات.

فجرًا، كانت قد هربت مع ذلك الشاب الذي لم يضيّع وقتًا وجلبها لمنزل عمّي، ليبدأ مفاوضات مع أهلها ويفلح بالارتباط بها شرعًا. لكنّه لم يتلق جوابًا أبدًا. فقط الرصاصة التي أطلقها ابن عمّ وَنَسة الذي حُرم منها لتكون راهبة الدير. كانت خائنة في نظر الجميع، وتستحقّ الموت. لم يُغفر لها قطّ، بعد أن ينس حبيبها البدويّ من الانتظار، تزوّجها شرعًا. كانت تسقي شجيرات رمّان قرب منزلها المبنيّ حديثًا من الطوب، تحمل طفلًا في أحشائها، عندما تلقت رصاصة النهاية.

لم تكن وَنَسة تأكل الباميا واللّوبياء والخس والفول، والسمك أيضًا حرام، إذ لا يمكن ذبحه. ظلّت تتقيّد بكلّ تعاليم دينها حتى آخر لحظة في حياتها.

في بيت عمّي، كانت مهمّة وَنَسة تحميص القهوة وطحنها وتحضيرها. لم أر يومًا أبرع من وَنَسة بتحميص القهوة!

لقهوتي الآن رائحة غير رائحة قهوة وَنَسة، أو قهوة جدّتي. القهوة أنثى تحمل رائحة من تعاشر، تصنّف الروائح، تبعثر رائحة الفرح وتتلقّى رائحة الحزن المختلف، وتنثره كعطر كأنّه يحضننا، ليحصي النهايات ويعيد بدايات كلّ شيء، بطريقة مغايرة.

...

المنظار لصيق بيديّ وعينيّ. أراقب الطرقات. في النهار، أشرد قليلًا مع الأمداء والسراب. وفي اللّيل، أسمح لنفسي برفع المنظار إلى أعلى، حيث النجوم. عندما يفني البشر هذا الكوكب الجميل، سيدركون أنّهم هم ومعاركهم واختراعاتهم وسياساتهم، ودولهم وأحزابهم وأديانهم، لم يكونوا إلّا حدثًا عابرًا في هذا الكون اللّامحدود. لا أحد يريد أن يبصر حقيقة أنّ الأرض ليست إلّا أحد الكواكب التابعة لأحد أصغر النجوم. في درب التبانة، نجوم لا يعنيها في شيء أن تجعلنا سعداء أو تعساء. غالبًا، سيكون قد فات الآوان، عندما يفكّر بنو البشر بصدق وواقعيّة بشأن مكانتهم الضئيلة في هذا الكون.

آخر خبر سمعته في النشرة الإخباريّة حول مذنّب يمرّ قريبًا من الأرض.

كيف لمذّنّبٍ أن يمرّ قريبًا من كوكبنا ولا يفنيه؟ كيف يقاوم فكرة أن يكون مذنّبًا مدمّرًا ومخرّبًا، وهو مذنّب خائبٌ اجتاز الكون سدى.

في اللّيل، سكون كامل، لولا بعض رشقات الرصاص التي تلطّخ سكون الصحراء؛ اعتدنا سماعها، ما دام الصوت بعيدًا، فإنّنا لا نكترث بمعرفة سببها أو مصدرها.

بين وقت وآخر، يعبر السماء نيزك مستعجل، وفي تلك اللّحظة يحقّ لك أن تتمنّى أمنية. أمنيتي الوحيدة: الأمان. أسأل مرام على عجل عن أمنيتها، تقول بهدوء المستسلم: «أن يأتي يوم وننسى كلّ هذا القهر».

لا تسلك النيازك الدروب نفسها، لكنّها تحترق بالسرعة عينها.

هل حقًّا يخبّئ هذا الكون الساحر دفتر حسابات كبيز؟! أم سلامًا كبيزًا؟

لو نتعلّم من المذنّبات كيف تسير وتشقّ مسارها، تحرق كلّ ما في طريقها لتكمّل خطّ سيرها.. ولو أنّنا نتعلّم من النجوم كيف نغادر، كيف ننطفئ بأناقة، كيف تنتهي سيرتنا ونحن في عزّ التوهّج واللّمعان، نموت ونفنى بينما يظلّ ضوؤنا في مكاننا، يراه الكون.

يجلب وائل بعض الفطائر المحلّاة، أرسلتها لنا خالتي، مع الشاي؛ ثمّ السجائر. نفثت دخانها هناك بين تلك الأدغال الغامضة في داخلنا، دغل الصور الأولى في حياتنا، ودغل الأصوات، ودغل الروائح. فجأة، تحضر صور الماضي على عتبة الحاضر كحصان يحمحم. يخرج ياسر من صورته المعلّقة على الحائط، طفلًا يمدّ لسانه للصورة، مع ابتسامة عريضة. جميعنا لقّننا أبي الدرس الأوّل: ابتسموا، لم يكن لـ«تِتْكَ» زرّ الكاميرا قبل أن يرى ابتساماتنا. تعلّمنا ثمّ تعوّدنا أن نبتسم لكلّ الصور المحتملة، حتى لو لم يكن أبي من يقف وراء العدسة، إنّه تأثير العدسة الأولى التي ننظر إليها، عدسة أبي، التي أبتسم لها.. أبتسم لأعتى الولاءات، الولاء الأول لعدسة أبي، وهو يقول لي: ابتسمي.

...

ما أكثر الشرفات والنوافذ في منزلنا الكبير الذي أصبح ركامًا الآن. يمينًا ويسارًا، ألمح التضاريس النائيّة لهضاب بركانيّة بعيدة، تبدو بلون أزرق مسودّ، بينما أعبر باتّجاه الشرفة، تستوقف بصري زوبعة ترابيّة، لا يمكن أن تراها العين إلّا في تلك البوادي.

لساعات استغرقنا: أنا ووائل ومرام، في مراقبة تلك الدوّامات العموديّة التي تمشي على نحو لولبيّ مدوّخ، لا تكترث بالجهات، لا قانون

لوجهتها، ولا تاريخ معلومًا لبدء تشكُّلها، ولا نبوءة يمكنها توقُّع وقت تلاشيها.

حتى لو كان اليوم ممطرًا، ستعثر تلك الأرض على غبار وتدوِّره في حلقة عموديَّة، ولن تتخيَّل إلَّا واحدًا من مردة الخرافات قادمًا صوبك ليطرح عليك سؤالًا لا جواب له، وستعيش رهبة اللَّحظة التي قد يقتلك فيها المارد.

أنَّى توجَّهت ستهبّ تلك الريح الهائمة التي لا اتِّجاه لها: نعم ستدور حولك فقط، ولوهلة تظنّ أنَّك مقصدها وستغادرك وتتركك منقوعًا بوهمك. في يوم ثارت الريح العشوائيَّة وتحوَّل الجوّ إلى غبار وحسب، أغلقنا كلّ النوافذ وخسرنا الشرفات. هجمنا على الخزائن. وائل ومرام قاما بتفريغ خزانة أبي، بشراهة وتأنٍّ، نبشا كلّ شيء: ألبومات الصور، الأوراق.. أفرغا الأدراج الملينة بكسر فخاريَّة محفوظة بعناية، كان أبي قد عثر على بعضها في طفولته، وبعضها الآخر خلال رحلات الصيد. وبفرح أطفال فتحنا تلك العلب المعدنيَّة الصغيرة التي تحتوي على عملات أثريَّة، جُمعت من أرض مزرعتنا خلال عمليات حفر أساسات المنزل، أو خلال توضيب الأرض للزراعة أو خلال بناء السور.. عُملات تجمع عدّة حضارات: الإغريقيَّة، والبيزنطيَّة، والإسلاميَّة. ثمّة عملات تحوي بروفايلات آسرة للإسكندر المقدوني، وأخرى عليها أباطرة رومان مختلفون، وأخرى كتبت عليها عبارات إسلاميَّة. أجمل تلك اللّقى ما عثر عليه البدو مصادفة في المدافن المنحوتة بالصخر، حيث كان الميِّت يُدفن مع أنفس ممتلكاته: حليّ، أوان مختلفة للأكل، أسرجة للإضاءة، ودمى طينيَّة تمثِّل آلهة الميِّت المفضَّلة.

ديمقراطيَّة حقيقيَّة في أن تختار إلهك الذي يعجبك؟ أن يكون لك إلهًا تفضِّله على غيره!

ذات يوم، عندما تموت تصبح التماثيل فنًّا. هذا الشكل من أشكال الموت هو ما ندعوه ثقافة. ستتحلَّل وجوهنا، يمضغها الدود، وتبقى صورنا. ولّى زمن التماثيل، ولن يحظى أيّ منّا بتمثال.

ثمّة أصوات وإيقاعات لا علّة لوجودها إلَّا في الحزن الذي تمنحنا إيّاه.

تمسك مرام بعملة، وتقول لي متسائلة: عشتار؟! نعم هي بذاتها، مَنْ غيرها كانت آلهة وحكمت زمانها؟! تمثال امرأة تطعم عنزتين، واحدة بيمينها وأخرى بشمالها، بينما تنظر مباشرة نحونا، لا تأبه بأحد، فيما

ابتسامة خفيّة ترقد بين شفتين مكتنزتين، من قال إنَّ مجد هذه الآلهة يذوي؟ نعيش على أرض تحتفظ بذكريّات مجدها، مجدها أنَّها شهدت الاقتسام الأوّل بين بعل الجبار وعشتار الناضجة. كلّ التماثيل الصغيرة المصدَّعة كانت لآلهة حكموا هذه الأرض في سالف الزمان. عيونهم الفارغة لا يجرؤ أن يسدلها أحد، عيونهم تجهلنا، لا ترانا، تنتمي إلى عالم آخر. نحن الفانين تأزف ساعتنا، وتبدو الحياة كلُّها مثل حلم مضطرب. هم يقطنون السماء ونحن تمسكنا الأرض. محظورة علينا تلك السماء. نتخيّلها. نحلم بها، لكنّنا نبقى أرضيّين والسماء هناك عالية، نقيّة، لا تعرف سكّان الأرض المتوحّشين.

آنيّة فخّاريّة أخرى نُقش عليها رسم لامرأة، لا يمكن وصفها بسيّدة أو أميرة أو ملكة. إنَّها امراة خام، بجسدها الممتلئ وحوضها العريض، ترتدي مئزرًا يكشف نصف جسدها بشكل طوليّ. تبدو أنَّها تنزل دَرَجًا. وعلى إحدى الدرجات وراءها، بدا تاج ملكيّ، كما لو أنَّه انتُزع من رأس ملكة ورُمي هنالك للتوّ. لم يلتبس المشهد عليّ: إنَّها عشتار، وقد هبطت درجات الجحيم إلى مملكة العتمة، مملكة العالم السفليّ. شقيقتها بريسفوني ملكة الموت والظلام، أجبرت شقيقتها ملكة السماء والضوء على تلمُّس أعماق مملكة الجحيم، كانت تعرف أنَّ من يسلك درب الجحيم سيكون هو نفسه الجحيم. هبطت تلك الأعماق درجة درجة. تجرَّدت من تاجها وصولجانها ونجومها وزينتها ومجدها الضوئيّ، وهي في طريقها إلى مأدبة الجحيم العظيمة. الجمال كلُّه هبط إلى هناك لتسمع الأموات يتكلّمون، هم يقولون الحقيقة المجرَّدة، دون أوهام، الأوهام ملك الأحياء. إنَّها عشتار في رحلتها الشهيرة إلى مملكة الجحيم، لتفتدي حبيبها دموزي.

قبل ثلاثين سنة تعلَّق ياسر بأذيال عجوز ألمانيّة، كانت تقيم بين البدو خلال فصل الربيع فقط. كانت عالِمة آثار، وكانت مهووسة بتاريخ هذه المنطقة، تعوَّدت الحياة بين البدو، لسنوات طويلة وهي تنقّب وتحفر وتكتشف. لحقتْ بياسر كعادتي. كان الوقت ربيعًا، وجدّتي رافقت منازل العشيرة إلى خربة «الأندرين». كنّا نمشي وراء العجوز الألمانيّة التي ترافق مجموعة طلّاب جامعيّين يدرسون التاريخ بجامعة دمشق. جاؤوا في رحلة استكشافيّة مع أستاذهم. وبفضول طفل يكتشف العالم الشاسع حوله، سمعتها، وهي تتحدَّث عن عالم قديم يحكمه مجلس من الأرباب. وعن نحت بارز لفتاة جميلة، لكنَّ أذرعها أغصان شجرة، وساقيها انغرستا كجذع في الأرض. قالت العجوز الألمانيّة إنَّ اسم تلك الفتاة: «دافني»،

الحوريَّة التي هربت من حبّ إله الشمس أبولون، ولتنجو منه حوَّلها أبوها الذي كان «إله النهر» إلى شجرة غار، فلم يكن متاحًا أمام أبولون إلَّا أن يعقد حول جبينه إكليلًا من الغار، وجعله رمزًا للنصر. لا ينسى الآلهة الذكور، كما الرجال، قطّ امرأة هجرتهم.

تلك المنقِّبة العجوز زرعت في نفسي هوس قراءة الكتب المجهولة للأسلاف. ولعي بأولئك القوم الذين كانوا يزعمون الألوهيَّة، كانوا جميلين، متنوِّعين، مختلفين، نرجسيِّين، متعالين، لهذا رآهم الغير: آلهة.

تتبَّعت آثارهم على تلك الأشياء الصدئة، والعظام المنحوتة التي أكلتها الديدان، واللَّفائف الجلديَّة المزيَّنة بعلامات سحريَّة وطلسميَّة، جلود حيوانات دُوِّنت عليها كلُّ الخرافات القديمة. في اللَّيل، أحلم أنِّي أجول في المعابد المتفسِّخة، تغمرني لفائف البردى، وأتمتم لغات منسية.

•••

لم يكن عواء ذئب، كان هديل حمامة حائرة.

نهضت صباحًا، وأنا أنوس بين الحلم واليقظة، ثمّة حمائم كثيرة حولي تطير تارة، وتارة أخرى أسمع هديلها. رأيت شقيقي وائل في منام غريب ملتبس. في النوم قد تمنحنا الحياة لمحات أو شذرات ممّا خبأته عنّا. عندما فتحت عينيّ، ورأيت سمهر وسارية وهما يفتحان النوافذ لتخرج حمامة عالقة في المنزل. لم أكن أحلم إذن! إنَّها حمامة دخلت خطأ من خلال إحدى النوافذ المفتوحة، ثمَّ احتارت في طريق الخروج، رفرفت بخوف واضطراب، واصطدمت بالزجاج الشفَّاف الذي لا تبصره. سارية شرحت لي: عفتو.. حمامة كانت عالقة.

نزلت معهما لتناول طعام الفطور في المطبخ السفليّ، للفور سألت عن وائل، فشرح لي أبي أنَّه ذهب مع ابن عمّي لناحية الحمراء، ليجدِّد هويَّته! لم أكن أعرف أنَّ وائل كسر هويَّته بالخطأ، وعليه أن يقدِّم الأوراق المطلوبة في أقرب ناحية تتبع لمدينة حماة حيث سجلّ نفوسنا. وجدت أنَّه من النافل أن أحكي لأبي عن السَّيَّارات التي تجول الطرقات وتحمل أعلامًا مختلفة حولنا. لم يرها، لأنَّه يجالس حزنه في الطابق الأرضي..

منعني قلقي من الصعود للطابق الثاني، تلفَّعت بالأسود لأقطع حوالى خمسين مترًا تفصل منزلنا عن منزل أولاد ياسر، حيث تقضي أمُّهم عدَتها حبيسة أربعة جدران. كنتُ أتجنَّب رؤيتها مع أولادها لأخفِّف من نوبات بكائي الهستيريَّة.

جالستْ فاطمة، والأولاد يحتفون بعمَّتهم على طريقتهم. جلبوا الماء والقهوة والبسكويت. ناغيت مراد أصغر إخوته الذي بالكاد بلغ العامَ الواحد، إلى أن دخلتْ سارية وهي مرتبكة ومتلعثمة تريد أن تقول لي شيئًا: «عمتو . عمتو.. عفو وائل» يا ويلي، نهضت وأنا أتعثَّر بعباءتي. كان وائل ينزل من سيَّارة لأقاربنا، جلّابيته البيضاء مدماة، ذراعه ملفوفة، يمشي متَّكئًا، أو بالأحرى مسنودًا بذراعي ابن خالي وزوجته. بخطى متعثِّرة، لحقت به وهو يتَّجه صوب أبي الذي استقبل المشهد بذعر لا يوصف. ووراءه وقفتْ أمّي وقد أخرسها المشهد. سبقتني مرام بعدّة خطوات، وأحاطت وائل بذراعيها.

قصد وائل مع ابن عمّنا مدينة صغيرة اسمها الحمراء، تبعد عن قريتنا حوالى ثلاثين كيلومترًا، قبيل الحمراء ببضعة كيلومترات، بغتة، عند أحد المنعطفات، قطعت طريقهم سيَّارة ـ نوع «أفانتي» سوداء، يرفرف منها علم غريب ومحاطة بعدّة رجال مسلَّحين، وجُّهوا فوهاتهم صوب الطريق، الفوهات لم تمهل وائل وابن عمّي ولا ثانية، انطلق الرصاص بغزارة رهيبة جعلتهما يخفضا رأسيهما، بينما ابن عمّي الذي يقود سيَّارة الفان ـ هيونداي وضع كلّ ثقله على دوَّاسة البنزين وانطلقت السيَّارة بأقصى سرعة ممكنة على الطريق أمامهم، والذي كان لحسن الحظ مستقيمًا، فسهَّل عليهما الابتعاد عن السيَّارة التي لحقت بهما، لكنَّها توقَّفت على تخوم مدينة الحمراء، حيث يسيطر حاجز نظاميٌّ، بالكاد يحمي نفسه.

تلك المدينة الصغيرة كانت تحتوي المستشفى الوحيد في المنطقة، والطبيب الذي أسَّس المستشفى هو ذاته من أسعف وائل ذات مرّة خلال صغره من أزمة مرضيَّة حادّة، والتاريخ يعيد نفسه: ها هو الطبيب نفسه يضمِّد له جرحه، وقد اجتمع كلّ زوَّار المستشفى حول وائل ليتفقَّدوا ابن العميد الذي تعرفه كلُّ المنطقة.. ولأنَّ الفوضى سيِّدة الموقف بامتياز، فإنَّ اللّصوص استغلوا انشغال ابن عمّي بإسعاف وائل، وأفرغوا تابلوه السيَّارة من كلّ النقود، وحتى الأوراق الرسميَّة، والتي كان بينها فيزا كارت وأشياء لا تُستخدم إلَّا في بنوك دولة الإمارات، حيث كان يعمل ابن عمّنا. بينما السيَّارة أثارت عجب الجميع: كيف قطعت حوالى خمسة كيلومترات وهي مثقَّبة من كلّ الجهات. السيَّارة توقَّفت أمام المستشفى ولم تعد تعمل قطّ. أعجوبة أنقذتنا من فجيعة أخرى.

•••

كان ياسر يربط الإخلاص بالذلّ، يقول دائمًا: لكلّ آدميٍّ حيوان

يشبهه، بعض البشر مخلصون ومستذلّون كالكلاب، وآخرون محتالون كالثعالب، يمكنهم العيش في كلّ الظروف، والبعض يحملون طباع الضبع: قفامون وليليون يرتكبون جرائمهم بالخفاء، وفي النهار يختفون. الضباع لا يمكن أن تُرى بالنهار. وهنالك من ينتمون لمعشر الذئاب: صبورون، مغرمون بالمسافات التي تُبقي «الآخرين» بعيدًا.. أيضًا لا ينسون.

تشغل الذئاب تفكيري، لكنّي أتبنّى استراتيجيّة الثعلب، أمارسها دون ملل، بالكاد أغادر جُحري، فقط ألقي النظر، أشمّ الهواء، ثمّ أعود لألتفّ على نفسي.

ألوذ بالمطبخ، أعدّ القهوة للمرّة المئة في اليوم الواحد، من خلال النافذة، تعلّقت عيناي بزوج من القباب الطينيّة، سكنته ذات يوم مع أمّي وإخوتي. أبي كان يغيب أيّامًا طويلة في خدمته العسكريّة، ونحن نعيش في تلك القباب العتيقة.

أخذتني شهوة تلمُّس ذلك الطين. غادرت جُحري. تسربلت بالأسود وتنقّبت، وقطعت الدرب الذي يفصل مزرعتنا عن باقي القرية. زيارتي المباغتة فاجأت ابنة عمّي التي كانت تطبخ غداءها على النار، لأنّ الغاز مفقود منذ مدّة، وإذا وُجِد، فإنّ الأسر الفقيرة تعجز عن ثمنه. كنت أريد دخول القبّتين اللّتين تحوّلتا مع الوقت إلى مخزن لما يُهمل استعماله مع الوقت.

لم تخفِ ابنة عمّي دهشتها من طلبي، لكنّها أذعنت وغابت لبرهة، ثمّ عادت ومعها المفتاح الحديديّ الكبير الذي لم نعد نراه مطلقًا في الأقفال الحديثة.

ماذا عسانا نفعل في النهاية للإفلات من لعبة الحنين؟ ما الذي أجنيه من دخولي هذا المكان؟

كلّ ذكرى تحيل إلى ذكرى أخرى، هكذا إلى ما لانهاية.

المكان معتم رطب، رغم القيظ في الخارج. رائحة التراب وصوت مواء قطة تُرضع صغارها، وبضع تحرُّكات خافتة لكائنات فاجأها دخولنا. حذّرتني ابنة عمّي من التوغُّل أكثر بين الأغراض الكثيرة المرميّة دون تنظيم، فقد تلدغني عقرب أو تعضّني حيّة. أنا الملدوغة سلفًا بالحنين، وكلّ ذكرى صغيرة تعضّني بقلبي.

يحرّكني الولع، وأنا أجول بين حطام تاريخيّ، تعتبره ابنة عمّي نفايات أو سقط متاع، وأنا أراه شيئًا آخر، شيئًا من تلك الأشياء التالفة،

المكسّرة، المبقّعة، الملطّخة، الملوّثة، المتداعية. تحكمني جاذبيّة تلك الأبنية التي هي على وشك الانهيار. كلّ المولعين بالآثار يحملون في داخلهم خزينًا من أفلام صامتة قديمة، كدّسها الحنين. يعرفون كيف يكونون جيرانًا صالحين للخرائب.

بين تلك الأشياء، كانت بقايا جلد ضبع.. تلمّسته. كنت حاضرة يوم قتلوه وسلخوه، ويوم تنكّر به ياسر، وركض خلفي ليخيفني.

لم يعد أحد يتحدّث عن الضباع.. انقرضت لم يترك البشر لها جحرًا تتوارى فيه.

فقبل ثلاثين سنة، لم يكن هنالك إلّا ضبع واحد.

ضبعٌ واحد، لكنّه قُتل على الأقلّ سبعين مرّة، كيف؟! كلّ شاب يافع ينوي استعراض قدراته أمام الفتيات، سيتحدّث عن مأثرة عنوانها العريض: «هاجمني ضبع وقتلته»، الغريب أنّ أحدًا من البدو لم يفخر يومًا بقتله ذئبًا!

صوت راسخ، لم أنسه قط، صرخة مفعمة بالنشاز الوحشي، تلتها صرخة أخرى وبالوحشية ذاتها. حدث ذلك قبيل المغيب بقليل. ناداني ياسر من بعيد، لأشهد معه شيئًا نادر الحدوث.

كان ياسر يقف مع رجال ونساء وأطفال في أعلى تلّة أثريّة تخفي الكثير من الكهوف والمغائر. جميعهم ينظرون إلى الأسفل حيث يجري شيء ما. أخذت بالصعود. تفاديت الصخور الكبيرة، وتعرّج طريقي بحيث أدركت أنّ ثمّة شيئًا فاتني أن أشهد بدايته.

كان ضبعًا، ميّتًا!! كان يئن أنّاته الأخيرة من أجل سُننه، التي هزمتها سُنن الإنسان.

لا عجب أيُّها الضبع، أنّ وحشيّتك غير كفوءٍ لرصاصة ابن آدم!

لم يكن ذلك الغول الذي يحرّك الأحداث في حكايات فريال!

كان فقط ذلك المتوحّش التعس الحظ، المسحوب لتوّه من أعماق الأرض، من مملكته، من عالمه الحي إلى عالمنا نحن البشر.. وحدنا نتقن القتل. عمّي اعتبر فكرتي التالية جهنّميّة: لماذا لم تسمحوا له بأكل نعجة بين وقت وآخر، لديك الكثير منها؟

لبثت أراقبه، لم يكن يتحرّك، ولم يعد يُصدر أصواتًا. عمّي قال بصوت واثق: «مات».

عيناه مفتوحتان، يرفض القبول بفكرة الموت. عيناه كالزجاج، ثقة شيء خفي لم ينطفئ فيهما.

كانت عين الضبع لا تكترث بقاتلها، لا تطرف. ولّى الخوف مع الحياة، كان الجسد يتمرَّغ في طين الأرض الرطبة التي تلقَّت مطرًا ربيعيًا صباحيًا غزيرًا. بدت العين وكأنَّها لا تزال تسخر منا.

شعرت بشيء من التعاطف. تعاطفٌ مع كائن طبيعيٍ لا يعتنق الأفكار، ليس له معتقدات. إنَّما يحكمه قانون الطبيعة. ذنبه أنَّه يعيش مثل ذلك الصيَّاد البدائي الذي لا يؤمن بالملكيَّة الخاصَّة، ويعتبر المواشي التي تقتنيها القبيلة طرائد مباحة وحسب.

كانت الشمس شحيحة الضياء عندما بدأوا بسلخ جلده. لا أثر للكلاب والماشية والحمير، جميعها فرَّت. تحوَّل الخوف إلى رائحة، تفوح من جسد ضبع!

عمّي يتحزّى أذني الضبع، دائمًا هنالك أذن مخرومة ويعتقد البدو أنَّ جهة الأذن المخرومة تدلُّ على الأجزاء التي يمكن أكلها من الضبع لاكتساب قوَّته ورباطة جأشه. دلَّت الأذن المخرومة من جهة اليسار على النصف الذي يمكن أكله من القلب والكبد، لأنَّ العرب تزعم أنَّ الضباع لا تأكل إلَّا لحوم الشجعان. الكلاب فرّت، بين الضبع والكلب عداوة فإن وقع ظلُّ الضبع على الكلب يقف مكانه ولا يقدر على المشي خوفًا من الضبع أن يأكله وإن مرض الضبع أكل لحم الكلب يبرأ.

ياسر مع ابن عمّ لنا يربّي الكثير من الحمام، انتزعا جمجمة الرأس وذهبا بها إلى برج طيني للحمائم، ودفناه في مكان قريب، يُعتقد أن يُبعد الأمراض التي قد تصيب الحمام، والثعالب وبنات آوى. زوجة عمّي حصلت على مرارة الضبع، للإكتحال بها لأنَّها تجلو البصر. وثمّة شجار هامس حصل بين امرأتين، الشجار سببه اليد اليمنى للضبع، تُجفّف وتُسحق وتحمل كحجاب يُشدّ على عضد المرأة أو ساقها تسهل ولادتها. أمّا «الشعور التي حول أنفه» نتفتها إحدى النساء لتحرقها وتسحقها بزيت وتحملها بحزامها، ذلك يجعلها محبوبة زوجها الأثيرة.

ليلًا تصاعد دخان الشواء واجتمع الشبّان الصِّغار حول الرجال الكبار لأجل الحصول على لقمة من لحم أحشاء الضبع ليصبحوا أقوياء. رأيت ياسر يزاحمهم، جلب لي قطعة لحم سوداء ملفوفة بخبزة، ابتعلنا تلك اللقيمات وغفونا ونحن نعتقد أنَّنا سننهض صباحًا وقد طالت أظفارنا

وأصبحت مخالبًا، وقد اكتسى جسدينا بالوبر المرقَّط بالأسود والأبيض، مع ذيل، وفكّ يقضم أيّ شيء، فكّ يفتك ويفترس، إنّه الاشتهاء العتيق للبدائيّة، للتوحُّش.

جلد الضبع ظلّ هو لعبة التنكُّر المفضّلة لياسر، يتربّص بي كلّما ولجت إحدى قباب الطين، ومن قلب العتمة يثب مقلّدًا الضبع وقد وارتدى الجلد.

وحدها الذكريات تزيّن رتابة الغياب الطويل لياسر.

أعود إلى جُحري، يضنيني ذلك الشعور الغامض إزاء ما لا يمكننا نسيانه ولا تذكُّره. أواجه حائطي المزدان بالصور، صورة عمّي مع بارودته وسيجارته التي لم تفارق شفتيه حتى مات. أشعر بقشعريرة تسري في يدي، وأنا أملأ المزيد من الورق عن أولئك السجناء في صور الماضي، أجعلهم يتكلّمون، أو أتكلّم عنهم، هذا أدب أم تشهير؟ إنّه شيء واحد: خيانة كاملة.

•••

من درابزون الشرفة الذي تحوّل إلى نقاب خاصّ، أسترقّ النظر إلى ساحة المزرعة، حيث يعبرها الضيوف. ألمح سمهر وأنتبه لملامح الرجولة المتسرّبة إلى محيّاه ، يعبر البوّابة المفتوحة على نحو لا يسمح بأكثر من دخول درّاجة سمهر الناريّة الخضراء. يلاقيه وائل. يبدو أنّه جَلَبَ له شيئًا سرّيًا من الدكّان. يأخذ وائل كيسًا صغيرًا من سمهر وينظر صوب الشرفة، حيث يعرف أنّه سيراني في وضعي المتلصّص. طيف ابتسامة خفيفة، وكأنّه فرح بشيء متواضع، يصعد درجات السلّم ترافقه مرام. عثرنا على سجائر فايسروي، والقليل من التحلية، إنّها هريسة. تفور ركوة القهوة، ونأخذ أماكننا جلوسًا على عتبة الشرفة الغربيّة، حيث تطلّ على كلّ تلك الأراضي الخلاء، والتي اسمها «البادية».

لأنّنا نعيش صمتًا خالصًا، نسمع أصواتًا مختلفة لطيور متنوّعة في مزرعتنا التي تحوّلت على مدى ثلاثين سنة إلى غابة صغيرة، تؤوي طيورًا غريبة، بعضها لا نعرف اسمه، بينما تلك اليمامات المطوّقة الصحراويّة ذات الأرجل الحمراء، التي ابتدأت سيرة وجودها في مزرعتنا بزوجين منها جلبهما ياسر، قبل حوالى عشر سنوات. تتحرّى اليمامات حضور شقيقنا الغائب. تهدل، تتسلّق ظلالًا لم تعد موجودة.

تحطّ يمامة على الدرابزون، وتهدل. تهبّ ريح الظهيرة الحارّة، تقتلع

الدمع من عيوني، أسمع الهديل، وأحاول تثبيت نظري على بقعة بعيدة، وفي الوقت نفسه أعرف أنّي لو استرقت نظرة إلى عيني وائل أو مرام سأرى الدموع أيضًا، أتظاهر بحاجتي للذهاب إلى الحمّام، أنهض لأغسل وجهي مجدّدًا، أحتجّ على ذاكرة لها مكر امرأة مغوية تترك أحذيتها في كلّ الأماكن.

سخونة الظهيرات التي قضيناها في المزرعة في منتصف تموز ٢٠١٢، كانت خانقة، عكس تلك الظهيرات الحارّة عند جدّتي قبل سنوات طويلة. أفرّ من جسدي في ٢٠١٢ لأكون في جسد الطفلة التي تأخذ مكانها كلّ يوم على الدرجات البازلتيّة للقُبّة. جدّتي تأخذ قيلولتها، وهي متمدّدة على العتبة الحجريّة السوداء، حيث يمرّ الهواء مبرّدًا من الطاقات الموزّعة بإتقان في بَدَن القبة. تكبر الامتدادات أمامي، أجلس مسالمة في قلب الصمت, ياسر كذلك يقلّد صمتي ويجلس ساكنًا كتمثال.

خفقة جناح عصفور تحيلني إلى مطبخ مؤسّس من حجارة بازلتيّة مربّعة، منحوتة بدقّة إزميل فنّان جلبها البدو من الآثار الرومانيّة الكثيرة المتناثرة حول المكان، جعلت الأساسات من تلك الأحجار السوداء المنقوشة بالأعناب. المطبخ عبارة عن قبّتين مخروطتين متّصلتين مفتوحتين على بعضهما بعضًا. جدّتي جعلت القبّة الأولى مطبخها، حيث الدفيئة والكثير من الرفوف الخشبيّة الملوّنة بالأزرق والأبيض اصطُفّت عليها صحون بيضاء، جلبتها بعناية من مدينة حلب. والكثير من السلال متفاوتة الأحجام. يمكن للقبّة أيضًا أن تكون حمّامًا رائعًا. عندما تُحكِم جدّتي سدّ «طاقات» القبة بثياب قديمة تكون مخصّصة للرمي، وتغلي الماء في قِدر نحاسيّ كبيرٍ، أجد نفسي أجلس في قلبِ طست عميق من النّحاس، الكثير من البخار والصمت ومواء القطّة التي تعرف كيف تحفظ مكانها في إحدى الطاقات. ستموء دون أن أحدّد مكانها، بينما تزداد مواءات قططها الوليدة. أستمتع أنا بالماء الساخن الذي تسكبه جدّتي بسخاء على جسدي. أسترق النظر إلى عتمة القبّة الأخرى، عتمة شبه حالكة بالكاد ألمح ظلالًا مبهمة لجرار كبيرة وصناديق خشبيّة كبيرة مؤطّرة بالنّحاس، يسمّي البدو الواحدة منها «عنبر»، عادة تستخدمها البيوتات الكبيرة لتخزين السمن. منذ وفاة جدّي، قلّصت جدّتي قطيعها لأقلّ من الربع، واستغنت عن تلك العنابر المكدّسة في عتمة القبّة الأخرى. خشونة اللّيفة على جسدي، والتي ستمرّ على وجهي مرّات عدّة، تنتشلني من خيالاتي بشأن القُبّة الأخرى. أسأل جدّتي عن سرّ صوت غريب أسمعه

في تلك القبّة الحالكة، تقول لي دون اهتمام كبير: هرّة تُرضع أولادها.

أخرج من الطست وتلفّني بمنشفة رائحتها قرنفل، تنشّف لي رأسي، تأخذ كمشة من خلطة ذرورات مختلفة «محلب وخضيرة»، من الروائح محفوظة بعناية في صرّة من المخمل المخرّم والمبطّن بالكتان، توزّع تلك الذرورات برأسي، وهي تمشّطه بمشط من العظم الأبيض، ثمّ تقسّم شعري نصفين وتجدله جديلتين قصيرتين. تتّجه إلى الدفيئة حيث تكون قد دفنت فيها بيضتين، أو بعض الكمأ الذي يجلبه لها عادة خلف الراعي الذي يعتني بقطيعها. سأنتظر ساعتين على الأقل حتى أخرج من القبّة لتضمن سلامتي من الرشح. خلال ذلك، تكون قد طبخت وجبة الغداء، ورتّبت القُبّة وفتحت الطاقات واحدة تلو الأخرى، بحيث ينتظم دخول الهواء النقي دون أن يضرّ بحفيدتها التي أخذت حمّامًا للتوّ وألتقط نعاسًا طافيًا في الجوّ. غالبًا ما أكون قد نمت. عندما أنهض أجد أنّ ياسر نام قريبًا منّي، ويكون بدوره قد خضع لطقوس الحمّام ذاتها، تفوح منه رائحة الخضيرة.

لم أزل أشمّ تلك الرّائحة، تحملها ريح الذّاكرة، الذّاكرة التي تجعلنا نشمّ ونرى ونسمع أولئك الذين غدت أرضهم مكانًا عميقًا، غائرًا كجرح لم يمسسه أبدًا ضِماد.

...

ماذا يمكنك أن تفعل مع السراب الذي يتلقّى إملاءات الشمس اللّاهبة؟ وحده كان حاضرًا بقوّة في صمت تلك الظهيرات، حيث يلعب السراب مثل فكر حزّ، مثل خوف عتيق وأصيل، حيث ثمّة صوت يناديك بأصداء منسلّة هاربة، رغم إبهامها تقبض علينا. آخذ حبّة الليكسوتان، أرمي نفسي في النوم، وأوهمها أنّ كلّ شيء ينطفئ نهائيًا. أرى نفسي في حقل من شقائق النعمان، بينما تلوح لي عن بعد شاهدة قبر.

أرى ياسر، نظرته الطازجة التي لم تتعثّر قط، ودائمًا تجتاز الأيّام والزمان والأحلام.. أنهض من حلمي، لأفتح عينيّ على حقيقة مرّة: ياسر ميّت.

لماذا شقائق النعمان تنبت بين القبور؟! هو من سألني ذات مرّة هذا السؤال المرّ. خلال وقت الاستراحة المحدّد تبعًا لمزاج خالي وعدد السجائر التي ينوي إحراقها، تطول استراحتنا، سينتشر الطلّاب الصغار وسط المقبرة الصغيرة. لم تكن تلك «المقبرة» تتجاوز أكثر من ثلاثين قبرًا، فالعشيرة استقرّت حديثًا، والبدو لم يخمّنوا أنّهم باستقرارهم سوف

يكونون على موعد دائم مع شاهدة قبر. أشارك بقية الأولاد اللعب. سنلعب الغميضة، لعبة ياسر المفضّلة. يومها جاء لزيارتي عند جدّتي، كان يبحث عن اللّعب الحرّ بعيدًا عن «انضباط» أمّي. يومها، لعبنا «الغميضة» وكانت شواهد القبور مطارح للاختباء.

اخترنا الشاهدة الوحيدة الملوّنة بالأحمر، غريب؟! اتّكأنا على بدن الضريح. خلال مدّة الانتظار.. قرأتُ الاسم والتاريخ. إنّه قبر الشاب الذي قَتله ابن عمّي على إثر خلاف حادّ بين العائلتين. وأبي لا يأتي إلى قرية جدّتي بسبب هذا القبر. ثمّة وجهٌ لامرئيٌ شعرتُ به، انسحبت من اللُّعبة وتبعني ياسر. عدنا إلى مدرستي المسكونة بالجنّ. وأرسلت ياسر إلى بيت جدّتي. انزويتُ في مدرستي الطينيّة، حيث مناطق الصمت التي لا يجرحها الكلام.

•••

لا تعوِ أيُّها الذئب.. لا توثق نفسك بالحديد، حديد الماضي، إنّه الشلل بعينه، إنّك أعمى، إنّه الماضي يأكلك بلهفة ويحكمك باستبداد! أصمّ أذنيّ، وأكتب، لعلّي أنسى وأمنح نفسك مذاق التحرُّر من الماضي.

ليست كتاباتنا إلّا أجزاء مقدودة من جدران الماضي! سأكدح بشرف، لأقتلك أيُّها الحزن.

في اللّيل، أنطلق عبر الضباب اللّامع لدرب التبّانة. يقولون إنّنا نولد تحت نجمة بعينها، لكلّ منّا نجمته، النجوم ترانا ونحن نولد ونموت، نحزن ونفرح ونتألّم ونخدع ونخون.. كلّ ذلك تبصره النجوم. أين نجمتي؟ ماذا تريد أن تخبرني؟ في تلك اللّحظة انزلق شهاب سريع. فيزيائيًا، هو نيزك صغير احترق لدى ملامسته للغلاف الجويّ للأرض. سحريًا، هو رسالة من الأعالي.

الشهاب كان جميلًا تمامًا مثل جمال تلك الأشياء المرئيّة، لكن لا تسمح بلمسها.

لماذا تحترق تلك الرسائل؟ كم من الشهب يُفترَض بنجمتي أن ترسل لتخبرني بشيء لا أفهمه؟ فقط، بضعة تصوُّرات غائمة استللتها من مناماتي الأخيرة.

ننظر للأعلى، تلمع النجوم، دون أن يخطر لأيٍّ منها أنّنا نولد ونموت ونحن نبحث عن الدروب المفقودة التي توصلنا إليها. في صغرنا، حدّثونا

عن نبتة الفاصولياء العملاقة التي تحوَّلت سلَّمًا إلى السماء.. منذ ذلك الوقت، وجميعنا يُفكِّر بالتسلُّق نحو الأعلى.. وفي الوقت نفسه، نعرف أنَّنا نموت. حياتنا مستعارة من عالم مجهول، نهاراتنا مستعارة وليلنا كذلك. موتنا هو الحقيقي فقط.

أنا ووائل ومرام نتحدَّث. عن ماذا؟ مستقبلنا؟ علينا أن نعثر على وسيلة أو طريق آمن للخروج من المنطقة.

كأن تلقي عملة في الهواء؛ طزة أم نقش؟ احتمالان فقط متاحان. أمامك نسبة نجاح ٥٠٪، ونسبة فشل ٥٠٪. يغدو الوضع أكثر صعوبة وتعقيدًا، إن كان المطلوب منك أن تخمِّن هذا التخمين نفسه عدَّة مرّات متعاقبة؛ تنتج هذه الاحتمالات المتشابكة عددًا كبيرًا من الدروب المحتملة، علينا أن نستعدَّ لطرقات غير متوقّعة.

الضباب وحده حاضر في تلك البرِّيَّة. تقطع شرودي حركةٌ مريبة بين الأشجار، ألمح ذيله المراوغ، الثعلب الذي كان يقول عنه ياسر إنَّه حيوان سعيد! كيف؟! كلّ الصيَّادين يعرفون أنَّ الثعلب ينسى خيباته بسرعة، لا يحزن قطّ على أرنب يفوته صيده، سيعثر على غيره حالًا ويباشر بملاحقته؛ السعداء هم الذين لا يعرفون معنى الخيبة، لا يندمون. الثعلب لا يندم.

الحيوانات أكثر واقعيَّة من البشر.. يلجأ الثعلب إلى قدراته هو، لا يلجأ إلى أحد، لا يتسوَّل مساعدات خياليَّة، لا يبحث عن يد تُمدُّ له من السماء، إنَّما يبحث هنا، على الأرض، كيف يجعل هذا العالم ملائمًا لعيشه وحياته ولعبه وخداعه. لا يخاف من المجهول، يخاف من الأقوى منه، والمحتمل ظهوره في أيّة لحظة. لا يخاف من الإحباط، ولا من الموت. يقف على قوائمه الأربع، ويشمّ الجهات، وينظر إلى هذا العالم. ينظر بصراحة إلى العالم وجهًا لوجه. يبدأ يومه ليفعل أفضل ما يستطيعه دون أن ينتظر مساندة أخ أكبر أو أب. لا يفكِّر في الماضي، لا يندم. بذكائه الفطريّ يخلق يومه. لا مكافآت ولا عقوبات، لا وعظ ولا رشوة، فقط ما يجترحه بنفسه دون منَّة أحد. يصيد طريدته، لأنَّ الأمل يسيطر عليه، لا الخوف!

كائنات حرَّة تبدأ يومها بنظافة دونما التقيُّد بكلمات وأحكام، أطلقها أسلافُها في الأزمان السحيقة.

أنام، أغفو، لكنْ لا.. أستيقظ مرّة أخرى، وأتسلَّل خلسة عن عينيّ

وائل، لأبتلع حبّة من مهدّئ اللّيكسوتان. حذّرني بشدّة من مغبة الإدمان على المهدّئات. لكن كيف أنام؟! نمت واختلط عواء الذئبة بغناء أبي.

لماذا كان يغنّي لنا «بابا»؟! كان يلهينا، يساعد أطفاله على تمرير الوقت، فيما السّيّارة اللاندروفر تقطع الطريق الترابيّ الوعر. على بعد ثلاثين كيلومترًا شمال شرق حماة، ستغيّر الأرض ملامحها.. سندخل «ديرة الشمبل» ـ اسم غير مدوّن رسميًا.. سنقرأ فقط لافتات زرقاء، بالكاد مقروءة، تدلّ على أنّك ضمن نطاق محافظة حماة.

ستلفحك شمس أخرى، ستشتمّ رائحة حتميّة: رائحة التراب. ستظنّ لوهلة أنّها رائحة الغبار الذي تثيره سيّارتك أو سيّارة تجاوزتك بعجرفة.. ستلاحظ على عجل ذلك «الانقلاب» من المدينيّ الحضريّ إلى الرعويّ البدويّ البدائيّ. للحظة، سيلفُّك الخوف من الفراغ الكبير الذي يحيط بك فجأة. ذلك بالضبط ما كنت أعيشه كلّما سلكنا الطريق مسافرين من المدينة إلى «الضيعة». سأنتزَعُ من الغابات والسهول الخضراء، ومن حدائق مدينة حماة المحاطة برياض نهر العاصي، وأجد نفسي في سعة الأفق الرهيبة. ستتبدّل لعبتي، لا رمال رطبة ولا موج ولا بيرة! فقط السراب هنا. هنا أبتلع شطارتي المفترضة، فمع السراب لا يسعك إلّا الانخراط مع سطوعه الماكر المتغيّر. فجأة، سيقطع أبي غِناءه، وتترنّح اللاندروفر العسكريّة، ليتفادى أفعى سوداء تعبر الطريق الترابيّ، وسنصاب بخيبة جماعيّة، وتصدر عن ياسر شتيمة كبيرة يقرّع فيها أبي: «لماذا؟ كلّ مرّة!» بلى كلّ مرّة نصادف فيها حيّة تسعى في طريقنا، سيتفاداها أبي مبرّرًا أنّه لو فشل بقتلها بعجلات السيّارة، فإنّها قد تعثر على طريقة لإنقاذ نفسها بالإلتفاف على إحدى العجلات، وسيكون صعبًا إخراجها من بدن السيّارة المعدنيّ، وستتسلّل إلى داخل السّيّارة، وقد تقتل أحدنا.. ويذكر لنا حوادث مماثلة سبق أن حدثت مع أقاربنا على الطرقات!

أنام الآن.. وأسلك الطرقات الهاربة في اللّيل العميق، يسحبني السّؤال الساذج: كيف سأصمد أمام كلّ هذه اللّيالي المعتمة؟!

•••

أسأل جدّتي عن الأحلام، لماذا نراها في اللّيل؟ تقول لي: نامي، لا يمكننا أن ننام دون أحلام.. من لا أحلام لديه لا ينام. شكرًا جدّتي. نبّهتني مبكرًا من آفة الأرق، لهذا تمرّنت على الأحلام، كلّ يوم عندي حلم جديد. حلمي الجديد أن أعثر على ربيع جديد.

هربت من المدرسة، رافقت جدّتي إلى الربيع. لحق بي ياسر.

هكذا هو منطق البدو.. يلحقون بالربيع.

يقولون إنّ قوّة لاوعينا هي التي تبلور أبعد ذكرياتنا.

كان ذلك الربيع في منتصف الثمانينيات، يوم كانت البادية لم تزل بقعة منسية من كلّ ما يشي بالتطوّر، الإسمنتيّ، والإسفلتيّ، والتكنولوجيّ.

لأنّ جدّتي أرملة، وقطيعها قليل العدد مقارنة ببقية القطعان، فإنّ بيتها المنسوج من شعر الماعز، لم يكن يحوي «الزنعة» ـ أيّ المكان المخصّص للرجال. كان سكّان ذلك البيت: جدّتي وأنا وياسر الذي تبعني معاندًا رغبة أمّي بالبقاء في قرية أعمامي. أيضًا، معنا الكلب وجذيان أو ثلاثة، كانت تربطهما ليلًا في أحد أعمدة البيت خوفًا عليهما من براثن الذئاب.

فجرًا، يبدأ النهار. أسحب دثاري معي، وأجلس جوارها بانتظار كعكتي. ياسر يكون قد نهض قبلي، سبقني وأكل كعكته. تلك الكعكة لم تكن سوى قرص ساخن من الخبز مسوّى على شكل كعكة، سآكلها وأنا نصف نائمة. وأعود إلى فراشي الممدود على الأرض لأكمّل نومي.

أستفيق مرّة أخرى بعد شروق الشمس بحوالى ساعة، سيكون موعد الفطور. وستكون جدّتي قد انتهت من الخَبز، ودفنت لي بيضًا أو فطرًا أو كمأ تحت الرماد. سيحاول الكلب التقرّب منّي لأرمي له شيئًا، بينما الجذيان سيرسلان أصوات ثغاء رقيقة متقطّعة. يضجّ المكان بأصوات الرعاة ونباح كلاب الرعي وأصوات مختلفة لطيور الربيع: الترغّل، الصعو، الدُرّج، القطا.. بينما جدّتي تلملم فراشي وغطائي، ستشهق فزعًا وقد عثرت على أفعى صغيرة نامت تحت الفراش!

سيكون مصير تلك الأفعى قاتمًا، لأنّ جدّتي وحدها لم تكن مقتنعة أنّه يمكن لأفعى أن تكون جنيًا تتكرّ بهيئة أفعى، وعادة البدو تحذير الأفعى قبل قتلها، بقولهم: «سيري.. سيري»، فإذا لم تفعل، إذن هي ليست من الجنّ، وحلالٌ قتلها. لكنّ جدّتي لا تعطي الأفعى تلك الفرصة بالمطلق. تعاجلها بضربة قاتلة بطرف أحد أعمدة البيت، الذي تنتزعه بسرعة عجيبة وتدافع به ضدّ المتطفّلين أمثال تلك الحيّة، بينما أنا أرقب المشهد وكلّي أمل أن تكون تلك الأفعى جنيّة، فأرى شيئًا خارقًا للعادة. لكنْ لا شيء. فقط أفعى مهشّمة ممعوسة، سرعان ما تكنسها جدّتي من أرض منزلها وتردمها بالتراب، دون أن يتوقّف لسانها عن كيل التهم والشتائم للأفعى القتيلة.

حالًا تحضر تلك المرأة المتَّهمة بالشعوذة، ياسر يلمحها تغافل جدَّتي وتنتشل الحيَّة الميِّتة من تحت التراب وتلفُّها بخرقة قماش بالية. غدوت أعرف أنَّ قلب الأفعى يُجفَّف ويُشدُّ على إنسان لا يؤثِّر فيه السحر، وأكله يقوِّي الأعصاب ويبطئ الشيب. جدَّتي رأتها وسألتها بريبة عن غايتها من الحيَّة الميِّتة. لم تتلعثم المرأة وهي تشرح لجدَّتي أنَّ جلدها مع رأسها يعلَّق على الحبلى تأمن من إسقاط الجنين، وهي تريدها لتجفِّفها وتسحقها وتعلِّقها على بدن شقيقة لها لا تحمل الأجنة أكثر من شهرين.

يبدأ نهاري بجولة بين تلك المنازل المتناثرة والمبنيَّة حول جدَّتي. جميعهم أقاربنا.. فهنا منازل العشيرة. منازل لأخوالي وأعمامي وأبنائهم.أبحث عن ياسر. ألمحه عن بُعد، إنَّه هناك يقذف الحصى والحجارة بقلب فوَّهة البئر الرومانيّ، التي تشبه فوَّهة بركان خامد بسبب أثر المعاول التي تعمل سنويًّا على تعميقه وتوسيعه لنضح الماء للماشية. يتولَّى الصبية الصغار مهمَّة رمي الحجارة، بينما الشبَّان منهم يحملون البنادق الملقَّمة والجاهزة لإطلاق النار على تلك الحمائم. سيخرج الحمام البرّي والعصافير، سيتحوَّل العالم إلى رفرفة وأجنحة وحمائم وهديل، وإطلاق رصاص.

نتسلَّل خلسة إلى بئر شبه مردومة تشتهر فوَّهتها بأنَّها مسكن للبوم، وحيّات طويلة وضخمة؛ وللبئر اسم. إنَّها بئر «هدلة»، اسم الفتاة القتيلة التي رُميت جثتها فيه. بفضل الإناث القتيلات اكتسبت بعض الآبار أسماءها. يا لها من طريقة لتحظى فيها بئر باسم يحوِّلها إلى مَعْلم من معالم المكان. «هَذلَة»، فتاة من العشيرة، كانت فقيرة تربّي إخوتها الأيتام. هي بالكاد تبلغ العشرين، تبيع السمن واللَّبن أحيانًا في سوق مدينة السلميَّة، هناك يبدو أنَّها أحبَّت شابًّا ينتمي للطائفة «الإسماعيليَّة»، قيل إنَّها كانت تحمل جنينًا يوم أطلق عليها عمّها الرصاص، الذي لم يتذكَّر أن يرعى أبناء أخيه من اليتم، لكنَّه فطن إلى «شرفه»، وقتل تلك الأخت الكبرى التي تُعيل إخوتها. بعد يومين من قتلها ورميها في البئر، أزَّ الرصاص وراء سيَّارة كانت تُقل الشابَّ الإسماعيليّ، الذي جاء متأخِّرًا.. هدلة قُتلت، وهو طُلِب منه المغادرة فورًا مع ذويه.

مساء، سيأتي وقت الحمّام، وهنا أصعب شيء في ذلك البيت المنسوج من شعر الماعز الذي يعبره الهواء من كلّ الأنحاء. سيكون الماء ساخنًا وبين الزَّرب والرِواق، عليك أن تستحم!

الزَّرب هو ذلك الفاصل المشغول من القصب المحبوك مع الصوف

برسومات جميلة، وعادة يكون بمثابة الجدران بين أقسام البيت. بينما الرِواق هو الجزء الخلفيّ من البيت، أي ذلك القسم المنسوج من الشَّعر والمائل كسفح جبل مظلّلًا الزَرب، وسأكون محشورة هناك، في عمق الطست النّحاسيّ مع صابونة غار و«غادوس» مملوء بالماء الساخن.

بضع طاسات مليئة بالماء وليفة قاسية ستمرّرها جدّتي على جسدي بسرعة خوفًا من نسمات المساء الباردة. ستلفّني على عجل بمنشفة كبيرة. تتمّ عمليّة التنشيف، دعكًا، بسرعة عجيبة، ثمّ ألبس ثيابي النظيفة وأتدثّر قرب النار، أغوص في فروة من صوف الخرفان. بعدها يأتي دور ياسر الذي يعلو صوته متذمّرًا من دعك جدّتي القاسي لجسده.

نغفو في نومة لذيذة مع غروب الشمس بانتظار صباح جديد.

لكنْ، هنا بعد ثلاثين سنة، لا أغفو، لا أنام، فقط تعوي الذئبة.. ياسر أغمض عينيه في غفوة لا صحوة بعدها.

•••

عمّي، يطلق رصاصة من بندقيّته، هربت الغزالة، حلّقت، اختفت خلال لحظات. تمتم عمّي، وهو يعيد حشو البندقيّة بخرطوش جديد: الغزلان التي تكون أسرع من الرصاصة تنجو.

السرعة! نعم.. يجب أن نسرع بتحرُكاتنا لننجو.

عبر المنظار، خلال النهارات الطويلة، نستكشف ما حولنا بدقّة، مع دهشة: أعلام بألوان جديدة تدلّ على أكثر من جهة، وقد صُبغت بألوانها معظم البوّابات الكبيرة! بينما الطريق الفرعيّ الذي يربط بين حماة وحلب، لا يبعد عنّا أكثر من أربعة كيلومترات، تجوبه سيّارات ترفرف عليها تلك الأعلام. هنا، كانت المفاجأة بالنسبة لنا: المنطقة تحت سيطرة الجماعات الإسلاميّة المتطرّفة دون علمنا؟ لماذا لم نسمع شيئًا عن ذلك في إحدى تلك المحطّات الفضائيّة، التي لا مهنة لها غير الكذب؟ تلفزيوننا الرسميّ الذي يعتمد «تكنيك» النعامة، تجاهل ذلك.

وقعنا في الفخّ، كيف سنغادر المنطقة؟! أبناء الضابط! اللّه وحده يعلم كيف سيتعاملون معنا في حال صادفناهم على أحد الطرقات! طرحتُ ذلك السؤال بهلع حقيقيّ. خفّف وائل من مخاوفي قائلًا: سنسلك الدرب الذي جئنا منه، معظمه تقريبًا مغطّى بالحواجز النظاميّة.

المساءات كانت أفضل قليلًا من الصباحات. على الأقلّ، كنت أقول

لنفسي مرّ اليوم على خير، فيما تتنازعني شتى الهواجس. أعود مساءً إلى الشرفة الغربيّة المطلّة على فيافي زرقاء اللّون بسبب الحجارة البركانيّة. المنظار رفيقي المحبّب والضروري، أرقب تلك البيوت المتناثرة كيف تستقبل اللّيل، وشيئًا فشيئًا تشتعل الأضواء..

أخفض المنظار. في إحدى تلك اللّحظات الغافلة سيمرّ ثعلب. هنا، سيأتي دائمًا دور للثعالب، سندوخ ونحن نتابع تلك الذيول الفاتنة التي سنلمحها في كلّ الأوقات. الثعلب بطل كلّ الأوقات، سيبزغ فجأة، لكنّه لن يعبر الطريق أمام أيّ سيّارة، سنراه متلفّتًا سريعًا متفقّدًا كلّ ما حوله، سيكون بعيدًا حذرًا مثل كلّ الكائنات فرديّة الطباع.

ما أصعب أن «تُطبّع» تلك الديار!! كلّ شيء فيها يعين الخيال على الجنوح صوب «اللّامرئي» وصوب الخرافة.. كيف لا أتخيّل المَرَدَة، فيما الزوابع الغباريّة المخروطيّة، المتطاولة، ستحاديني أينما تحرّكت؟!

مع هبوط اللّيل، أترك المنظار جانبًا، وأتحرّك صوب المطبخ، أجدّد قهوتي. لا أذكر أنّي صادقت القهوة بتلك الحميميّة خلال أمسيات الحزن التي لا أنساها في منزل جميل، الذي لم يعد موجودًا. يشرف المطبخ في الطابق الثاني بشكل مكشوف على كلّ أنحاء قريتنا الصغيرة. تدخل مرام، وهي تحمل بيدها شيئًا جلديًّا قاتمًا، وفي عينيها شيء تريد قوله. اكتفت بأن وضعت ذلك الشيء بين يديّ، وعادت إلى إحدى الغرف لتستأنف نبش الخزائن والصناديق والعلب الكرتونيّة والأكياس، وكلّ تلك الأشياء التي نتحاشاها لسنين طويلة بذريعة أنّنا ضيّعنا المفاتيح، ثمّ تأتي لحظة تدفعنا لفتحها عنوة.

كان ذلك الشيء الجلديّ الصغير قناعًا صغيرًا. واحدًا من الأقنعة الكثيرة التي كان يستخدمها خالي لتغطية أعين الصقور التي يجلبها من تركيا وإيران وروسيا والصين ومنغوليا.. وبعض تلك المدن لم أنس قط أسماءها مثل أولان باتور، بشكيك، ألماته، أوديسا. لاحقًا يبيع تلك الصقور للسعودية أو في دول الخليج.

للصقر عينان خرافيّتان. لا يمكن أن نلمح الذعر في عينيه، عكسنا نحن البشر. ما هذا الخطأ الذي سمحت به الطبيعة: أن يمتلك الإنسان دماغًا يؤهّله لحبس حرية طائر بِسُموّ الصقر؟!

مراقبة الصقور هواية ياسر المفضّلة. لساعات طويلة جلسنا قبالتها.يضعها خالي على كراسٍ مربّعة قزمة مؤطّرة بالجلد، مشغولة

بطريقة شبه بدائيّة، لتلائم مخالب الصقور الأسيرة. سيدخل خالي في مواقيت محدّدة، وحده يقرّرها، وبين يديه حمائم نصف ذبيحة بشكل خفيّ، ليمنح كلّ طائر وجبته. الصقر لا يأكل غير صيده. يعطّل الصقّار قوى الحمامة بجرح خفيّ، يوهم الطائر أنّ الحمامة صيده. خديعة يتقنها كلّ الصقّارين.

لم تغادرني يومًا صورة الصقور وهي تهندم نفسها. يشغل الصقر الكثير من وقته بصيانة ريشه. أمعن في تفاصيله: منقاره المتناسق، يتلاءم البروز الحادُّ في الفكّ العلويّ مع الانبعاج الداخليّ في الفكّ السفليّ. لا يُصدّق كيف أنّه يستخدم هذا المنقار الصغير الجميل لتمزيق فقارات الضحيّة. ضربة قاسية يوجّهها بهذا المنقار ليوفّر على نفسه حدوث صراع على الأرض وتكسير الريش.

كان خالي يقصد آسيا الوسطى سنويًا لجلب هذه الصقور. سمعت منه لأوّل مرّة عن بلدان مثل كازاخستان وقرغيزستان. شعوب تقدّس الصقور، يعتقدون أنّ عيون الصقر الحادّة تبصر الشياطين التي تسبّب حمّى النفاس، فيدخلون الصقر ليقف قبالة المرأة التي وضعت مولودها للتوّ، الصقر يحميها بعينيه.

أهل كازخستان يعتقدون أنّ الصقر هو الكائن الحيّ الوحيد الذي يعرف مكان الثقب الموجود في السماء، والذي يستطيع من خلاله الوصول إلى الربّ. وكلّما غاب بعيدًا في كبد السماء، يسأل ياسر خالي عمّا إذا ما تمكّن صقره من النفاذ من ذلك الثقب.

يحلّق الصقر في غموض الأعالي، الغموض الساطع.. يسلك دروبًا لا تسمح لنباهتنا البشريّة، حتى لو كانت عبقريّة، أن نعثر عليها.

•••

أحدهم.. يسهر هناك، ذئب يحدّق في عيون الماضي المفتوحة، على أراضي الحاضر الجرداء.

أحدهم يسير، يهيم، يبحث عن شيء ضاع إلى الأبد: النهار الذي يأفل. أكثر من أربعين نهارًا أفل، ونحن محاصرون في هذه المزرعة.

تفور القهوة، تندلق على الموقد، أنظّفه، وأوصّب قهوتي مع الركوة المليئة وفنجانين آخرين، لأنّ مرام ووائل سينضمان إليّ.

أعود إلى مكاني على الشرفة أجالس اللّيالي المرصّعة بالنجوم.

لن نكون قطّ بشرًا بلا خوف.

أعود إلى العتبة الرخاميّة، أفترش الأرض، وأمحص الأفق المعتم بالمنظار.

ضوء سيّارة! أخاف، أتوجّس.. تبرد القهوة، والمنظار لا ينزل عن عينيّ.. أسمع وقع خطوات تصعد الدرج: وائل ومرام..

لم تَملّي من هذا المنظار بعد؟

يسأل وائل متعجّبًا من قدرتي على الالتصاق بذلك المنظار.

أقول له، دون أن أزيح عينيّ عن العدستين: هنالك ضوء سيّارة قادمة نحونا.

يقول وائل نافيًا: لا. الضوء يتّجه صوب قرية أخرى. ما يلبث أن يهرع باحثًا عن المنظار الآخر.

لأنّه، قبل أن ينهي كلامه، انعطف الضوء صوب قريتنا.

تلقي مرام نظرة على أبي النائم في الشرفة، على فراش ممدود على الأرض، مغطًّى كلّيًا بناموسيّة بيضاء اتّقاءًا للبعوض.

يتفقّد وائل «الكلاشينكوف» الموضوع في سرير خشبيّ قديم في الصالون. وينضمّ إليّ في المراقبة.

ينشف حلقي، فيما الضوء يقترب، قد تكون سيّارة مهاجمة! وائل يُخفض المنظار ويؤكّد لي أنّها سيارة مغلقة. عادة، يُخشى فقط من سيّارات البيك آب.

لا أطمئنّ. أركض صوب المطبخ حيث نافذته تكشف الطريق الذي يمرّ قريبًا من السور، أراقب السيّارة وهي تمرّ ، لكنّها تُبطئ سيرها فيما تقترب من بوّابة المزرعة الرئيسة.. أنتبه إلى عبارة «اللّه أكبر» على الزجاج الخلفيّ، أتجمّد. لكنّ السّيّارة تستأنف سيرها سالكة دربًا يأخذها خارج القرية. نتبادل النظرات، وائل وأنا ومرام.

نفهم دون أن نتكلّم.

ماذا لو كانت سيّارة مكلّفة بإلقاء نظرة على المزرعة؟

ربما مهمّتها إعطاء إشارة للهجوم؟

دون أن نتكلّم، نصعد الدرج حفاة إلى السطح، أي الدور الثالث، يكشف كلّ ما حولنا. حتى لا يرانا أهل القرية الهاجعون أو الساهرون على

أسطحة منازلهم طلبًا للبرودة، نتوارى خلف خزّانات المياه. رغم أنَّ العتمة الشاسعة والتضاريس السهليَّة المفتوحة تتيح لنا مراقبة أضواء السيّارة لمسافة قد تصل إلى ثلاثين كم؛ لكنّا نلوذ بالمنظارين، تهمس مرام: سيّارة أخرى..

نلتفت للخلف لنكون بمواجهة أضواء عالية لسيّارة متّجهة صوب القرية من الدرب ذاته الذي سلكته السيّارة للتوّ.

كانت السيّارة مسرعة، واقتربت بسرعة. بدا واضحًا أنَّها نوع «كِيا» بحوض واسع تحمل أغنامًا، مرّت بشكل عاديٍّ من القرية، ودونما أدنى إبطاء أمام بوابتنا.

ليست خطرًا. عدنا لمراقبة السيّارة الأخرى، التي أخذت طريقًا مثيرًا للشكوك فعلًا، لم تكمُل باتّجاه الشرق، إنَّما انعطفت شمالًا وسلكت دربًا ينتهي بعد حوالي ستة كيلومترات بطريق له جهتان غربيّة وشرقيّة. لو كانت هذه السيّارة تريد إكمال سيرها المفترض للشرق، لما انعطفت تلك الانعطافة، وعندما وصلت إلى نقطة التقاطع أكّدت شكوكنا عندما سلكت الجهة الغربيّة، وهذا يؤكّد أنَّه لا مبرّر لمرورها بقريتنا إلّا لإلقاء نظرة ما.

راقبناها كيف أخذت الطريق ذاته الذي جاءت منه، حتى اختفت أضواؤها عنّا تمامًا.

هل ننام؟!

من هو هذا المحظوظ الذي ينام في فراشه آمنًا؟!

رجفة برد تجتاحنا في اللّحظة ذاتها، ننسلُّ بهدوء وراء بعضنا، ننزل الدرج، والإرباك يكاد يأكلنا.

ماذا نفعل؟

يحصي وائل ما لدينا من أسلحة، بصوت مسموع.

هل يكفي السلاح لردّ قَتلَة؟!

بينما نلوب بين الشرفات الثلاث، نتبادل المناظير. يكاد يقتلنا الرعب، فيما نلمح ضوء سيّارة واقفة تمامًا أمام البوّابة الحديديّة المغلقة، في اللّحظة التي قد يتوقّف فيها قلبي خوفًا، يقول وائل مطمئنًا: سيّارة خالد، ابن خالنا.

يعرف خالد أنَّ عليه الانتظار قليلًا لِتُفتح البوّابة.

عبر القنطرة الكبيرة في الصالون التي تشكّل شرفة مغلقة بالزجاج، وتكشف كلّ بيوت القرية، وجهة البوّابة، أراقب وائل وهو يقطع العشب حذرًا من الزواحف التي تنشط ليلًا.

ما أكثر العقارب هنا! في شرفة الطابق الثاني قتلتُ عقربة صغيرة بلون أخضر. وعلى نافذة الطابق الأرضي معستُ عقربة بلون أصفر. وتحت الاستراحة دعستُ واحدة سوداء.. تنوُّعٌ لافت في عالم العقارب.

يجلس خالد ووائل على الشرفة الأرضيّة التي تكشف جهة واحدة من الطرقات اللّعينة الأربع التي تتقاطع في قلب قريتنا.

يحاولان استدراجي لشرب الشاي، لكنّي أرابط على الشرفة العلويّة الغربيّة، وأصرُّ على ملازمة المنظار والطابق الثاني الذي يتيح لي التنقُّل بسهولة بين الجهات الأربع.

لا أشعر إلّا أنّني كائنٌ طريٌّ، رخوٌ، هشٌّ، يبحث عن قوقعة تحميه.

أشم رائحة السجائر من الأسفل، وأسمع حديثًا يدور حول موضوع السيّارة.

أهبط الدرج، ألمح ظلًّا لشيء أسود طويل. للحظة أتراجع، قد تكون حيّة، أتذكّر أنّي حافية، أعود أدراجي لأنتعل شيئًا، وأعود لهبوط الدرج، ألاحظ أنّ الظلّ في مكانه لم يتزحزح.. يا للخوف! ليس إلّا ظلًّا لعصاة مسندة على الزاوية.

خالد يخفّف من مخاوفي ببضع نكات يطلقها متهكّمًا على طريقتي الأمنيّة في التحرُّك.

حلاوة الشاي لا تخفّف شيئًا من مرارة حلقي.

بلهفة امرأة تهرع إلى حضن حبيبها، يعود إليّ حزني.

..أنام، والذئب يصيح في الآفاق التي نامت!

أغفو وعيناي معلّقتان بسلاح الكلاشينكوف النائم في السرير. نقطن عالمًا متوحّشًا. العنف ضروريٌّ لبقاء جنسنا ، علينا قتل الحيوانات، أو يجب على أحد أن يقتلهم لأجلنا، لكي نحصل على الطعام.. هكذا كان يقول ياسر دائمًا.

نقتلع الزهور لنزيّن بها منازلنا. وتلك كلُّها تصرُّفات عنيفة ضدّ كائنات أخرى حيّة. والحيوانات تتصرّف بشكل مماثل. يأكل العنكبوت الذبابة،

وتأكل الذبابة أيَّ شيء.. إنَّما هناك فارق عظيم: الحيوانات ليست قاسية. عندما يلفُّ العنكبوت الذبابة في شبكته، فإنَّه يقوم بحفظ وجبة غدائه للغد في الثلّاجة. القسوة اختراع بشريّ. الحيوانات لا تعذِّب بعضها بعضًا. نحن نفعل ذلك. نحن الكائنات القاسية الوحيدة على هذا الكوكب.

لم يخترع البشر شيئًا يمنعنا من اقتراف تلك الأفعال السلبيَّة والوحشيَّة التي نمارسها. إنَّها مشكلة أخلاقيَّة أو ربما مشكلة جينيَّة! ببساطة، هكذا خُلق البشر، أو ربما هكذا تطوَّروا.

•••

أيُّها اللّيليون.. أنتم الذئاب. عواؤكم يحفر فيَّ أسئلةً بلا أجوبة، يحدِّثني عن الموت، عن دروب نسلكها ولا تنتهي بالوصول أبدًا.

مرّ يوم طويل محمول على ظهر سلحفاة. لم أكتب شيئًا، بالكاد أكلت. فقط أتفقَّد ذراع وائل عن بعد. كان في الأسفل يسقي حوضًا مزروعًا بالورد. لم تزل ذراعه مضمَّدة بالشاش الأبيض. تغسل مرام الخضار التي جلبناها من البستان. أصبحت زيارة البستان تسليتنا المسائيَّة الأثيرة . يصحبنا الأولاد، فهم يعرفون تضاريس المزرعة أكثر منّا بعد عام قضوه هنا. والبستان زرعته أنامل أبيهم الراحل. نعثر على الخيار والبندورة والباذنجان والكوسا، ونقطف بضعة عرانيس من الذرة، ونجلب قرصًا من عبّاد الشمس، تتسلَّى سارية بتحميصه، وفي كلّ مرّة ستتلقَّى الانتقاد نفسه: أكثرتِ من الملح.

ينظر وائل للأعلى، حيث يتوقَّع أين سأكون. سلفًا، يعرف أنّي سأكون مع منظاري مختبئة في عتمة الشرفة مطفأة الأنوار. يومئ لي لأنزل لاحتساء الشاي. أفضِّل الشرود في عتمة اللّيل، تصطدم عيناي بعينين صفراوين مدوَّرتين كبيرتين تحدِّقان بي، ما أكبرهما!!

إنَّها بومة، بدت أنَّها تحرِّك تلك العينين الكبيرتين في كلّ الاتّجاهات.

رأيتها، عرفت مصدر ذلك الحفيف الخافت الذي كنت أسمعه في اللّيلتين السابقتين. كان ذلك صوت حركتها. كانت جاثمة على السور، قبالة الشرفة..

لبثتُ أراقبها.. كانت ذات جسد يشبه البرميل، تمتلك رأسًا ضخمًا، وثفة خصل من الريش على أذنيها تشبه القرنين.

إنَّها البومة القرناء. كائن مهيب وجميل.

كانت تبادلني النظر بصمت. هل تتأمَّلني أم ماذا!؟

أكيد، أوّل شيء تبادر إلى ذهنها أنّي فريسة أكبر من قدراتها وطموحاتها، فحتى لو قتلَتني، فكيف ستحملني وتطعمني لفراخها!؟

لا بدَّ من عشٍّ قريب في الجوار. تناهى إلى سمعي ما يشبه هسهسة فراخ، لكنَّ فراخ كلّ الطيور تصدر أصواتًا متشابهة، وذلك يدلُّ على أشياء متشابهة أيضًا، إمّا للمطالبة بالطعام أو للتعبير عن انزعاجها أو عن خوفها. كان قرص وجهها يتَّخذ لونًا محمرًّا على أرضيَّة صفراء مغبرَّة، القسم السفليّ من جسدها فاتح معلَّم ببعض الخطوط البُنيّ ـ شوكلاته، الساقان والقدمان مكسوَّة بالريش، حتى المخالب بالكاد تبرز. خمَّنت أنَّها لا بدّ أنثى، وتأكَّد لي ذلك عندما بدأت تنعب، فنعيب الأنثى أكثر حدَّة من نعيب الذكر، كانت تصدر نعيبًا متقطِّعًا.. ميّزتُ حوالى خمسة مقاطع صوتيَّة.. سرَّب هدوء البوم عنها إشاعات كثيرة. البعض يقول عنها إنَّها «رمزٌ للشؤم». في الحقيقة، لأنَّ البوم طائرٌ ليليٌّ لا تحبّ أن يراها أحد، تنتقل بصمت واحتراس، لا تحبّ الأضواء ولا لفت الأنظار، تختار أن تبني أعشاشها في أماكن مهجورة، حتى تضمن العيش بوحدة متفرِّغة لتربية صغارها. في حياتها اليوميّة، تلجأ إلى السرّيَّة والتخفّي. تحبّ الخفاء لتتوارى عن عيون أعدائها، وفي الوقت نفسه، حتى لا تراها طرائدها.

إنَّه قانون الطبيعة إذا ما بيّتَ النيّة لافتراس أحدٍ ما، تُخَفَّ عنه، راقِبه عن بُعد، إيّاك أن يشعر بك، لاحقه بصبر، لا تفقد أثره، ولا تغفل عيناك، لا تنشغل بشيء، شغِّل كلَّ حواسك.. أنظر، شمّ، إشحذ مخالبك، مرّن جسدك، فرشاقتك ستحتاجها لا محالة.

عندما علا صوت مرام تناديني من الأسفل، كانت البومة قد طوت جناحيها وانقضَّت على شيء ما على الأرض، كنتُ بالكاد أميّزها تحت ضوء القمر الشاحب. لم أرَ ماذا اقتنصت، لكنّ تابعتها وقد انطلقت بانسيابيَّة ساحرة.. حرَّكت جناحين ثقيلين بخفَّة مذهلة، ودون أن يُسمع لحركة أجنحتها صوت.

قطع عليّ شرودي بعالم الليل دخولُ وائل، كان يريد أن يقول لي شيئًا.

كان القرار أن نسافر. كيف؟! سنسلك الطريق الرئيسيّ صوب مدينة حماة. سيكون الدرب خطرًا لمسافة تقارب الثلاثين مترًا. حالما نقطع ناحية الحمراء، ستبدأ الحواجز النظاميّة.

عوى في أذنيّ ذئب منفرد. تلك اللّيلة، لو امتلكت قدرات الذئاب الكيميائيّة بتعليم حدود حوزها عن طريق الروائح والعواء. العواء يبعد قطعان الذئاب عن بعضها بعضًا، لإبقاء مسافة آمنة فيما بينها. بمدى وقوّة العواءِ يُحدَّد موقع الحوز. يُسمح للقطيع المنافس أن يستشفَّ مدى قربه من ذلك الحوز. يُنشئ العواء بهذا منطقةً عازلة بين القطعان المختلفة..هههه! الأمر الذي يؤدّي إلى تفادي الصراعات الإقليميّة.. هكذا فكّرت.

كان ذلك الصباح صامتًا ومريبًا، ولم أكن مرتاحة أبدًا وعيني لا تنزاح عن كتف وائل المضمّدة. ماذا لو صادفنا تلك العصابة التي تطلق على نفسها: «لواء البادية»؟! سنُقتل قبل أن تتوقّف السّيارة.

أصرّت أمّي على مرافقتنا. السيارة «فان» مستأجرة يقودها أحد أبناء عمومتنا. يحتضننا أبي واحدًا واحدًا، وأقرأ بعينيه الخوف والقلق. هرع الأولاد لتوديعنا كعصافير مذعورة من شيءٍ مجهول. شربت فنجان قهوة، وأنا أقف على الشرفة أدفع الأرجوحة بمراد الذي أصرّ على ملازمة أرجوحته. يتعلّق بصري بشجرة سرو ضخمة، حلّقت الطيور وزعقت.. وعلى بعد خطوات منّي، أرى ياسر وهو في عمر الرابعة عشرة، يوم جاء يجرُّ شتلة شجرة سرو صغيرة. سخرتُ منه، هو يحفر لها، وأنا أؤكّد له أنّها لن تعيش، عاشت السروة وغدت أطول شجرة في كلّ البلاد، بينما ياسر مات.

تحرّك الفان بنا، وسلكنا الدرب ونحن نتفقّد كلّ الجهات حولنا. كلّما صادفتنا سيارة نتبادل النظرات فيما بيننا، في المرآة كنتُ أرى رعب السائق من كلّ ما يتحرّك على الطريق. وصلنا ذلك المنعطف الذي سبق أن واجه فيه أخي وابن عمّي: الكمين الذي كاد أن يكون قاتلًا. مررنا بسلام، ما من أحد. قطعنا حوالى عشرين كيلومترًا دون أن نصادف سيارة أو دراجة، نلمح فقط بعض سكّان تلك القرى المتناثرة دون انتظام.

في ناحية الحمراء، قبل أسبوع تمّ إحراق دائرة النفوس. كنّا نظنُّ أنّ ثمّة موظّفين. نزل وائل ودار حول البوّابة المغلقة، وآثار الحرائق بادية بوضوح. ثمّة موظّف مختبئ وراء بوّابة معدنيّة، أخبره من وراء نافذة صغيرة أنّ الدائرة توقّفت عن عملها إلى أجل غير مسمًّى، تحرّك الفان واتّجهنا صوب حماة.

قبيل حماة بحوالى عشرين كيلومترًا، بدأ الطريق يأخذ مظهره الطبيعيّ، ازدحمت السيّارات، وشعرنا بشيء من الألفة، وقفنا عند الحاجز

النظاميّ، كان أبي قد زوَّدنا ببطاقة تقاعده من الجيش لتساعدنا في عبور الحواجز النظاميَّة، وبينما البطاقة ذاتها ستتسبَّب بقتلنا لو كان الحاجز لجهة أخرى. الحزن والخوف والأسى كلُّها أشياء تُلمح في وجوه أولئك الجنود.

أوصلنا الفان حتى سوق «الحاضر»، ذلك السوق الذي يضجّ بنساء البدو بثيابهنّ التقليديَّة، وهنّ يبعن ما ينتجنه من ألبان وأجبان وسمن. كان السوق مزدحمًا بشكل لا يُطاق. درجة الحرارة مرتفعة. القمامة منتشرة بشكل رديء، وفي سماء المدينة حلَّقت النسور آكلةُ الجيف.. كان مشهدًا مرعبًا أن ترى تلك النسور التي بدت كأنَّها تقتات على جثة مدينة. نقلنا أمتعتنا إلى سيّارة أُجرة لِتُقلنا إلى كراجات البولمان. كان سائق التاكسي يشتكي طوال الطريق من الفوضى السائدة، أخَذنا عبر طرقات ملتوية لنصل أخيرًا إلى الكراجات.

بدت ملامح الارتياح واضحة على أُمّي، كانت تريدنا أن نصل إلى الشام بأيّ ثمن، في حين هي اتَّفقت على العودة مع الفان إلى الضيعة. بينما كنَّا منهمكين بجرّ حقائبنا، لفت انتباهي عدد المسافرين الكبير وهم يفترشون أرض الكراج، وبدا واضحًا على الكثير منهم أنَّهم قضوا أكثر من ليلة.

عند شباك التذاكر كان الخبر الصاعق: لا تذاكر ولا بولمانات ولا طرقات. ثمّة فقط بولمانات تمشي باتّجاه حلب واللاذقية، وبأوقات غير منتظمة، وجميع تذاكرها محجوزة لعدّة أيّام قادمة.

كانت فكرة أُمّي بالاتّجاه إلى اللّاذقية معقولة، من هناك يمكننا أن نتَّجه إلى دمشق بالطائرة، حيث كانت تطير الطائرات بانتظام بين دمشق واللاذقية. لكنّ كلُّ شركات السفر أعلنت عن إفلاسها من التذاكر. علينا أن ننتظر عدَّة أيّام في حماة، والأفضل المرابطة في الكراج نفسه لنحظى بثلاثة مقاعد. أمّا الفنادق، فجميعها ممتلئة بالمنتظرين أمثالنا. إذن علينا أن نعود. تداولنا عدَّة احتمالات، بين البقاء: أين نبقى؟! وبين العودة إلى الضيعة. قرَّرنا العودة مع أُمّي الرافضة؟ هي تصرُّ على موقفها، ونحن نصرّ. أخيرًا عدنا أدراجنا مع حقائبنا، ووصلنا سوق الحاضر، حيث كان الفان وسائقه بانتظار أُمّي، لكنَّه فوجئ بعودتنا معها.

بينما أنتعل الخوف، أكاد أغفو وأنا واقفة، كنت أحلم بنوم عميق، لكنّ الخائف لا يحلم مطلقًا.

تزيد العباءة السوداء من اختناقي. تبدو مرام مستسلمة للعباءة أكثر مني. أحاول أن أقلّد هدوءها، لكنّ عبثًا. غادرتنا أمّي صوب السوق لتشتري بعض الفاكهة، وجلب وائل لنا عصيرًا باردًا من محلّ قريب. نفثت دخان السيجارة، وأنا أنفض غبار آمال باطلة. رغم ضجيج السيارات والموتسيكلات والباعة، كان هنالك الصمت الذي يعقب موت العصافير.

كلُّ الكائنات الثرثارة هي كائناتٌ ضعيفة؛ تغريد العصفور ليس دليلًا إلّا على قلّة حيلته، بينما الصقور لا تغرّد قطّ، بالكاد ترسل زعقات خفيضة متقطّعة، يستخدمها الذكر والأنثى في خطابهما الغزلي. الصمت لغة الأقوياء. هذا ما أتذكّره دائمًا ليقوّيني، وليمنعني من قول حماقات قد تنهك أعصاب أمّي التالفة.

تعاركت مع كلّ الكلمات المتاحة أمامي، لعلّي أفلح في قول بضع كلمات تخفّف من توجُّس أمّي، التي عادت مع أكياس مليئة بالفاكهة تحملها للأولاد. أخذنا أمكنتنا بالفان، وأنا أشعر أنّي أقف على كومة من الأنقاض. لقد تبدّدت الأحلام بالوصول إلى دمشق.

مرّة أخرى، عبرنا طريق العودة مع الخوف الذي زاد ثقله وحجمه.للحظة مباغتة، تذكّرت واحدًا من تلك المنامات التي ترشح في الفجر، تذكّرتُ أنّي رأيتُ كلّ تلك الطرقات المسدودة التي واجهتنا.

جميعنا كنّا في ذلك الفان مثل وريقات وردة ذابلة، أنظر صوب أمّي المشغولة بتفقُّد الجهات كملاك حارس. مرّة أخرى رعب المنعطفات.

تعلّق بصري بدرب ترابيّ دائر، يبدو كثير التلوّي رغم أنّ الأرض منبسطة، وتسمح بشقّ درب شبه مستقيم، تذكّرت أنّه الدرب الذي هُجّر بسبب شبح..!

تمامًا مثل كلّ درب في الصحراء، يمتلك شبحًا ليعبره بين وقت وآخر. إنّها قصّة يحكيها الكبار مرارًا وتكرارًا، بينما نحن الصغار نسمع ونعيد تأليف الحكاية.

بسبب شبح، معظم السيارات تتجنّب ذلك الطريق هنالك في الصحراء. حتى الظروف الحالية، والتي تستدعي استعمال الدروب المهملة تحديدًا، لم تنقذ ذلك الدرب المتلاشي في عباب الأفق.

هل حقًّا ثمّة وجود مرئيّ لأشياء غير منطقيّة تتحدّى القوانين العاقلة؟! يسألني ياسر ذلك السؤال كلّما سلك درب الخاتون عمشة، للصيد.

بسبب شبح امرأة، يضطرُ البدو إلى اختيار درب جديد.

ليس ضروريًا أن ننصت لنظريّات علميّة جديدة لتشرح معنى الموت أو مآل الحياة.

ربّما رؤية شبح امرأة طويلة بثياب سوداء يقطع دربًا صحراويًا أمرٌ قد يجعلك تتبنّى مسارًا جديدًا. فلأجل أن تتحرَّرَ من الخرافات القديمة، لتتبنَّ خرافات جديدة؟ عليك أن تغامر.

عبرنا كلّ تلك الضياع نصف الميّتة، وعيناي معلّقتان بالدرب الذي احتكره شبح الخاتون عمشة.

جرّب واسلك ذلك الدرب. ستسلكه متعثّرًا مخدَّرًا مسلوب الإرادة.

مهما كان دينك أو مسقط رأسك أو تاريخك أو لغتك أو عاداتك أو منطقك الذي تتبناه لتحيا، ستخضع لتأثير: تغريدةِ القُبّرة، دوران الكواكب، وهذا الكون الذي يتبنّى منطق «الصمت»، ليمرَّ الزمن ويعبرنا زعيق الحزن كعواء لا ينتهي، وينتهكنا عويل الأرواح المغدورة.

تلك الأرواح التي ترسل اهتزازات غامضة، ستدفعك للنهوض من نومك فزعًا، مرتبكًا، متسائلًا.

الذكريّات تسبّب الآلام، بينما الأشباح تسبّب الخوف.

بعض الأشباح تكون من بنات أفكار أحد الخائفين، لكنّ، أخطر الأشباح.. الشبح، الذي يكون نتيجة أفكار ومعتقدات معظم القلوب والأرواح الإنسانيّة.

أعرف أنّنا عندما نتحدّث عن الأشباح يُصبح كلامنا مشبوهًا، لكنّ هناك دائمًا وصف رائع ومغوٍ لكلّ ما هو مشبوه على وجه الأرض. بين الحقيقة والخيال ثمّة صلة قرابة تلغي الزمان والمكان..

الصحراء أرض أرواح، لهذا لا تنمو الغابات ولا تسقط الأمطار..حيث الآفاقُ تجذب نظرَك، ومن فرط العريّ تتحدّى قوانينَ الفيزياء، ثمّة معادلة كيميائيّة قد ينتج عنها شبح، تمامًا كما يلفّق السرابُ قصورَه وواحاتِه ومدنَه.

الشبح يتنفّس، ينبض، لكنّ لا دم له.

ومن المعتاد أن يُعطى الشبح اسمًا، فكلّ حقيقة تستحقّ اسمًا لا يُنسى، وشبح الخاتون عمشة استحقّ اسمه وسطوته، واحتكر دربًا طويلًا.

بسبب شبح الخاتون عمشة، شغلت بالي مسألة لم تكن يقينيّة قطّ بالنسبة لي، هل ثقة يد غير إنسانيّة، عنف ما ورائيّ.. يتدخّل ليحدّد الأقدار ويحطّم الغرور البشريّ بأكمله؟

شغلني درب الخاتون عمشة بعض الشيء عن ذلك الرعب الذي عشناه في الفان، التي يمكن أن تُغدر بالرصاص في أيّة لحظة. مررنا قرب قرية اسمها «العشرُ قبب»، عددت قبابها، كانت سبعًا فقط، انهارت ثلاث قباب، ربّما بسبب القصف أو الأمطار. لا غرابة أن يسفيها البعض بمطايا الجنّ.

مطايا الجنّ الطينيّة تلك، سكنتها وأحببتها، وعشّشت رائحتها في أنفي. بناءٌ من الطين المجفّف دائريّ مدبّب يأخذ شكل القبّة المتطاولة تنحني برخاوة. مُهندسة بشكل بدائيّ، تلملم حناياها وتلفّك بعبق الطين الذي سيحيطك بكلّ أحوال الطقس: سيكون عبقًا جافًا في الصيف وعبقًا رطبًا هانئًا في الشتاء. تلك القباب التي عرفها التاريخ المبكر للمنطقة بالشكل ذاته، لم تتغيّر منذ ذاك الزمن الذي نطلق عليه «ما قبل التاريخ».

فرائحة التراب ذاتها في سجل الشعراء والأدباء والحوليات، لا نخطئها: رائحتنا.

أنفُ طفلة في السابعة من عمرها سيخزّن كمًّا هائلًا من الروائح لتكون زاده في الزمن القادم.

ثمّة طراز من تلك القباب مكوّن من قبّتين متّصلتين، أي مفتوحتين على بعضهما بعضًا، لهما باب واحد. يسمّى ذلك الطراز من القباب بـ «الأوضة» وتلك الأوضة التي سكنتها في بداية الثمانينيّات، بقرية لم تتكوّن إلّا من بضع قباب من الطّين وعشرة من بيوت الشّعر السوداء المنسوجة من شعر الماعز، والتي تُستبدل صيفًا ببيوت بيضاء منسوجة من القطن.

«الأوضة» بناها جدّي، في ثلاثينيّات القرن العشرين. كان البنّاؤون يأتون من منطقة إدلب ومعرّة النعمان.. هكذا، اجتاحت تلك القباب ديرة الشمبل، وأعطتها ملمحًا خاصًا لا يمكن أن تعثر عليه في أيّ بقعة على وجه الأرض.

لمّا كانت عشيرتنا من أوائل العشائر الغنّامة، التي حاولت الاستقرار في القرى الرعويّة، فقد ازدانت تلك القرى والضياع بالقباب الطينيّة.

قريتنا مليئة بالمغائر المحفورة بالصخر، منذ عهد الرومان، والتي

خفِر غالبها ليكون إمّا صهاريج لتخزين المياه، أو مخازن للقمح والمؤونة.. شتاء ديرة الشمبل يحتاج إلى مؤونة كبيرة من القمح والأعلاف للماشية.

ولصق تلك القباب، سيكون ثمّة منزل من الشَّعر مُدّت أطنابه إلى أساسات القباب.

ينبغي أن أندهش كلّما تذكّرت النار الهادئة في دفيئة تلك الأوضة، تلك الصورة تحشد الحنين حولها لتدفعك لتخيُّل كلّ أبطال الخرافات، الذين يشكّلون عصب حكايات «فريال». اشتهرت فريال بقَص الخرافات. كلُّ السنوات التي مرّت، وأنا كلّ مساء، سأتحلّق مع إخوتي وأبناء عمومتي كبارًا وصغارًا قرب النار ولمبة كاز تُسرِّب ضوءًا منها، بالكاد يضيءُ بقعة تتكدّس فيها كؤوس الشاي الصغيرة بانتظار الشاي المخمَّر على الجمر شاي أسود اللّون مبجَّل.. حلو المذاق.

تتربّص بنا تلك الخيالات الضخمة التي تعكس أجسادنا على جدران القبّة المتراخية حولنا، فيما الشتاء يعصف، يمطر، ويستدعي كلّ أرباب البرد، وتتنافس مملكة العناصر، ويطغى الهواء.

هناك، كلُّ شيء يساند الخرافات ويؤجّجها، وللقبّة الطينيّة دور أساسيّ. لمبة الكاز وامضة، والمكان يشعُّ بأبطال مولودين من رحم الزمان الغابر. في الصباحات، تستأنف الخرافات نهاراتها معي، ترافقني وأنا أقطع الدرب الطينيّة الموحلة إلى مدرستي، حيث ثمّة قبّتان مفتوحتان على بعضهما بعضًا، خصّصهما أهل الضيعة لدراسة أبنائهم. كنت في الصفّ الثاني الابتدائيّ، وهذا الصفّ مكوَّن من ثلاثة طلّاب! كانت القبّتان تحتويان المدرسة بكامل مراحلها، أي حتى الصفّ السادس. وجميعنا نتلقّى الدروس في الوقت نفسه، والأستاذ واحد للجميع. أستاذ واحد فقط درَّسنا جميعنا.

لم يكونوا يكذبون، كانوا يحكون لي قناعاتهم، همسًا كانوا يحكون لي عن الساكنين اللّيليّين في تلك المدرسة: إنّهم «من الجنّ».

إلى أبعد ما تذهب الذكريات، يذهب عواء الذئب، ويوقظ مزيجًا من وجوه وأسماء ولحظات.. يعوي ويعوي، ويعرف أنّه لن يبقى.. لن يبقى أبدًا هو نفسه.

أيّها الذئب! كيف تسترضي الماضي بالعواء؟! خذني معك، لو تعلم كم أشتهي العواء، تحت قمر الصحراء الشاحب! فأنا مثل كلّ آدميّ مفجوع، رغبته الكبرى أن يذيب ذاكرته، أن ينسى.

نية مفزعة ورائعة في الوقت نفسه. الأشياء الرائعة تظلُّ في حيّز الأحلام، لا يمكن أن تتحقَّق إلَّا إذا تركنا باب اللّيل الطويل مفتوحًا.

بكيتُ حتى لم يعد ثمّة أمل. حزنت أكثر من حزن الصحراء بذئابها المنتحبة. وحدها الصورة المروّعة التي تسكنني: قبر أخي، بياض الشاهد، والسؤال: متى نرحل؟

في تلك اللّحظة فقط التي أعود فيها بدويّة، أتخلّى فيها عن تمدُّني، أكتب بإصرارِ ذئبٍ وحيد وحزين.

أعود للنوم، اللّيكسوتان يغرقني في عوالم أخرى: أرى نفسي، وقد غافلت تحذيرات جدّتي لأمشي مع ياسر، على الكورنيش المزخرف الثنايا، والذي يؤلّف ممشى عريضًا يدور حول خزّان المياه الذي كانت تتزوَّد منه مدينة الأندرين الداثرة. يقول البدو: «يبلاك بخراب الأندرين» عبارة ناقمة تقال لمن آذانا.

في خارج الخزّان، صفّ من الأحجار الضخمة مربّعة الشكل جُعلت لمنع السيول من النفاذ إلى الخزّان. وحوله كانت بقايا معاصر زيتون وعنب، واضحة من خلال حُفَر منتظمة مربّعة أو مدوَّرة أيضًا امتلأت بالماء، وفي اللّيل تكون مورد ماء للكائنات المقيمة في الجوار، وكثيرًا ما تتحوَّل تلك الكائنات إلى طرائد مضمونة على أيدي الشبّان من البدو، الذين يتوافدون إلى المكان مع انتصاف اللّيل، يرومون قنص ما تيسَّر لهم، وغالبًا ما تكون الأرانب الطرائد الأكثر وفرة..

رغد العيش في الأندرين الداثرة كان كافيًا لتشييد تلك الكنائس والثكنات والحمامات والأبراج والقصور والدور والخزانات والقني!

ثمَّة جمال خاصّ، يرمي بنا تلقائيًا في قلب ذلك التنابذ الدائم الرائع والجميل، وأحيانًا القاسي لمدينة خرّبها الزلزال. جمالها مدفون، بارز بعضه، وكلُّ تناسقها الفوضويّ ليس إلَّا أوابد لعظَمَةٍ، رماها الزمانُ أرضًا.

كان السور سالمًا في كثير من الأماكن، مبنيًا بأحجار ضخمة، مستطيلة الشكل، تظهر منه أبراجٌ مربّعة عادية، وأبراج مزواة. كان غالب الرعيان يصرفون أوقاتهم في الترنُّص بالثعالب التي تستوطن بقايا السور المردوم، حيث يوفِّر لها جحورًا مثاليّة موصولة بعضها ببعض، تسهل التسلُّل والاختباء والهرب والترنُّص.

ليل الأندرين يضجّ بأصوات ضغابيس الثعالب الوليدة، والأشباح، أشباح النساء القتيلات.

لقد تحوَّلت كلُّ صهاريج الماء المنقورة بالصخر، مع الوقت، إلى مدافن لجثث فتيات هاربات، وكلُّ صهريج يحمل اسم الفتاة المقتولة فيه. يا للتأريخ البائس! هذه بعض أسماء تلك الصهاريج: صهريج فوزة، وصهريج صيته، وصهريج منوى.. كلُّ فتاة تفكِّر باختيار حياتها ستنتهي مقتولة ومرمية باستحقار في أحد تلك الصهاريج. كيف لا تسود الأشباح ليل الأندرين، وعالمنا يصرُّ على تقسيم الحياة إلى خطايا وتحريمات وكفارات؟! قوانين كرَّستها مشاعر الرجال المتسلِّطة، ذلك الجبن البائس الذي يسمح لهم بذبح فتاة في مقتبل العمر، فقط لأنَّها تريد أن تختار شريكها في الحياة! تاريخ من هذا الخزيّ لم ينته إنَّما تأجَّج.

ـ ٥ ـ

«يا ذيب مين خاواك ما هاب»

الذئبة تعوي والآفاق ترتعش سلفًا من بعيد.

لأنّي دون شكّ وارثة مخلصة وغير مخلصة، يحكمني الحنين، لكنّي أتملّص منه. لا يشرّفني أن أكون ماضويّة، همّي عبادة الذكريات، كنت دائمًا من مروّجي «النسيان» ومن أنصاره. كلّما قرأت كتابًا، على قدر ما أعجبني، نسيته، لأقرأ غيره، وعندما أعتاد مطعمًا أو مقهى، أنساه وأغيّره لأتذوّق نكهات جديدة.

تقودنا الحاسة السادسة كما يدٌ متوارية. انهمكت بالتقاط صور للمنزل والمزرعة والشرفات والأشجار. يسألني وائل: لماذا؟ أجيبه بيقين مرير: «لن نبصر هذه المزرعة بعد اليوم. ستكون ركامًا ستدمّر جمالَها قوّةُ الحقد والنقمة المحيطة بنا».

كلُّ هواجسي، التي كانت تتحرّك تحت السطح، رحت أترجمها عبر التقاط الصور والتنقُّل بين نوافذ المنزل.

تكلّم أيُها الصمت.

عشية سفرنا، تومض النّجمات البكماء التي تبحث عن فضاء قصيّ، بينما نجوم جدّتي ترتعش وكأنّها ستفقد أفلاكها إلى الأبد. هل سأعيش الانبعاثات ذاتها دائمًا؟ وهل لو كنت في مكان آخر سوف تعود الأشباح نفسها والجنُّ ذاتهم؟

بالتأكيد، لم أكن سعيدة. ثمّة إحساس يشبه بؤس المحكومين. لكنْ لم أعد يائسة، والأكيد أنّي كنت عنيدة. لا أعرف أيّ أرضٍ تنتظرنا!! أيُّ سماء؟ أيُّ مأوى؟ أيُّ منفى؟ قد نسلك دربًا لا ينتهي بالوصول أبدًا. يدُ القدر هذه المرّة ستلقي النرد.

تقرّر أن يوصلنا إلى دمشق ابن خالنا. كيف؟ سيّارة نوع سكودا مغطّاة الحوض. ستكون مرام بالمقعد الأماميّ جنب ابن خالي. بينما أنا ووائل في الخلف مع بعض أمتعتنا القليلة. سنسلك دروبنا الخاصة. لنا دروبنا، التي شُقّت ذات زمن لأسباب غير معلومة، لكنّها محاذية للطرقات العامّة بشكل ما. إذا استطعنا سلوكها دون التباس، سنبلغ تخوم مدينة السلميّة بسلام.

يودّعنا أبي، وكلُّ ما فيه يشي بأمنيته الوحيدة: أن ننجو من هذا الجحيم. قبّلتنا أمّي مرارًا بعيون دامعة. سألنا الأولاد متى سيلحقون بنا؟ لماذا نتركهم ونغادر؟

عَبَرنا بوّابة المزرعة، وسلكنا الطريق المعاكس للذي سلكناه صوب حماة. هذه المرَّة يجب أن نصل مدينة السلميّة، حيث قيل إنَّ الدرب سالك حتى دمشق، بينما الطريق بين حماة ودمشق مقطوعة نهائيًا.

توقَّفت السيّارة أمام قطيع غنم وماعز. طالت المدَّة، وابن خالي ينتظر آخر خروف صغير تحثُّه أُمُّه على اللِّحاق بالقطيع، وترنُّ الأجراس المعلَّقة بأعناق الأُمَّهات، وتنبح كلاب الراعي حول القطيع لتلملمه وتدفعه إلى الإسراع أكثر بعبور الطريق.. إنَّه ذكاء الكلاب الذي تسفحه على أرض الإخلاص. فللإخلاص أرض وتراب ورائحة، إنَّها رائحة الدرب المتربّ، بينما كنت في الحقيقة أتنشَّق ملء رئتيّ أصفى وأنقى الروائح، لعلّي ألتقط رائحة النسيان وأتبعها في دهاليزها الهاربة، حيث تلك الأرض الجديدة التي تفلت من العين المجرّدة، والتي لم تسجّلها الخرائط أبدًا.

الجوّ خانق، الحرارة مرتفعة، كلُّ النوافذ مفتوحة، الصمت مطلق.فقط، صوت محرّك السيّارة مع طقطقة الحجارة الصغيرة تحت العجلات.

كنّا نعبر الفيافي المتاخمة للسلميّة، ورائي السراب مبهمٌ تمامًا كما اللّحظة المتوارية.. يسرح هناك على وجه الأرض منبسطًا، متمدّدًا، جديدًا دائمًا، مثل نبع لاينضب، أستعيد عواء الذئبة كما لو أنّي أستعيد من النسيان بيتًا من الشعر!

قطع دربنا ثعلب، تلفَّت كثيرًا صوبنا، وصوب جهات مجهولة. يحترف الثعلب الشك، لا يثقّ حتى بظلّ ذيله، لا ضوضاء لخطواته، رغم سرعته الفائقة يتوقَّف كثيرًا، يخمّن، يشمّ الهواء والسراب. لا يفشي الثعلب كلّ حِيَله، يحتفظ ببعضها للظروف الطارئة. يعتمد على الذكاء أكثر من الحركة. كنت دائمًا مغرمة بهذا الكائن الذكي، بطلوعه الرقيق الخاطف، توقُّفه المختصر، نقلاته المشحونة بالمتغيّرات. يخلط المصادفات لتتقاطع خطاه مع خطى الأرانب التي يحلم بصيدها.

تعالى الغبار وراءنا. خفَّفنا السرعة قدر ما استطعنا، خشينا أن يُلمح الغبار عن بُعد، ويُطلق الرصاص.. أو ربّما قذيفة.

مرّة أخرى، عبرته ذلك الدرب المتلاشي، الذي شقّه لي عمّي يومًا. كنت تلك المراهقة التي تجلس جوار عمّها في سيّارة الشفروليه، وهو يشرح لها أنّنا نمتلك خارطة شاسعة، إذا تدخّلنا في شقّ دروبها، هكذا تحوَّلت بادية الشام، منذ اليوم الذي استبدل فيه البدو خيولهم بالسيّارات،

إلى خارطة دروب متشابكة معقّدة لا يفك شفراتها غيرهم.

جعلني الموت أسلك ذلك الدرب المتلاشي، الذي يلوح كخيط ذكرى تتهيّأ للاندثار، الدروب التي تُشقّ في تضاريس الذاكرة لن يمحوها أحد.

هنالك بشر مفطورون على النسيان وتسطيح الأشياء والأحداث والأماكن! بينما أنا فُطِرت على التذكُّر، على اجترار الحزن، على ترقيع ملامح وجهي بابتسامة مواربة، تشي بداخلي، مثل كلّ الزوائيين وهم يشتُتون الفرح لتمهيد الدروب للحزن. وفجأة، وجدتني مطالبة بشيء من التوحُّش، خرجت من نفسي ومن جلدي واقترفت كلّ الجرائم الممكنة بالصور التي تعذّبني.

وقفت أمام ذلك الجدار الذي ثُبّتت عليه الصور، كنت كلّما حاولت انتزاع صورة، قاومتني كآدمي حُكم عليه بالإعدام، ويطلب الإبقاء على حياته. تلك الصور تتوسلني وتطلب الرحمة، أتركها وقد استيقظ توقي للكتابة. هل الكتابة مجدية؟ لماذا أكتب؟ الجواب: إنّها تساعدني على الحياة. كان أوّل درس لنا في الفلسفة حول حقيقة أنّ الناس على الأرض لا يعرفون جيّدًا ما يفعلون، وما هم، وما يريدون، فيما الهررة تعرف ذلك بدقّة. لهذا أكتب، لأكون من تلك «الهررة» إنّما مع تفوُّق واضح، أنّي أمتلك «الكلام». الكتابة يعني أنّي فخورة ببشريتي.

أقلعت عن عادة تصفّح الألبومات: أخافهم. أخشى أن يسحبوني إلى حيواتهم التي كانت. أخاف أن أنظر بعيونهم، وأفكر بعقولهم، وأشعر بقلوبهم. أطلّ من نوافذهم وألج حياتي من خلال بوّاباتهم هم. أريد أن أكون أنا. صورة واحدة يمكن أن تطمس كلّ صوري، تطمس «اختلافي». الماضي لا يبارى إنّما ينسى، حتى لو كَذِبًا، علينا أن ننساه، هذه الكذبة واحدة من تلك الأكاذيب التي تتحوّل مع الوقت إلى حقيقة. فتحت ثغرة في ذلك الجدار، وكشيء جامح خرجت، إلى حيث ليس هنالك حياة أو موت، إنّما قوى علينا أن نهزمها.

أخلِ الطرق.. يا ذئبة.

تقطع السيارة طريقًا مغبرًا، يشغلني الأمل الغامض الذي يتفتّح ويذوي عشرات المرات في لحظة واحدة. يحاذي دربنا، درب الخاتون عمشة، المرأة التي تتحوّل حكايتها إلى أشباح تتدفّق في صمت الظهيرات الحارقة. أشباح لا عدّ لها أضاعت قبورها.

كنتُ الوحش المشغول بحزنه، أنجز الصفقة الوحيدة المتاحة لي،

إنَّه طريقي الجديد ابتداءً من هذا اليوم. لا أحد، ولا حتّى حائك السجاد لديه مثلك، تلك الأنامل الصبورة والدقيقة التي تمتلكها الذكريّات لتحرّك دفّة الكتابة. هذه المرّة، لم أكتب لأكون روائيًّة، كتبت لأعيش بأيّ طريقة، لأنجو.. كنت ذلك الثعلب الذي ينقذ نفسه بالتظاهر بالموت. أكتب لأكون تلك النجود، قبل ثلاثين سنة.

النجود.. سمعتهم يتصايحون وهم يهتفون: النجود.

إنَّها تلك الغزالة التي تتولّى قيادة القطيع، فجأة عكّر صفو الصباح بضعُ رصاصات صيد انطلقت قريبًا من الحوايا المائيّة المنقورة بالصخر، وسمعنا صوت محرّك سيّارة «الجيب ولّس» المتهالكة التي يحتفظ بها أحد أقاربنا رغم أعطالها الكثيرة. «الجيب ولّس» رافقت شبابه ورحلات صيد طويلة للغزلان، التي سرعان ما خفّت وانقرضت بعد اختراع السيّارة والبندقية.

«الجيب ولّس» تستعيد شبابها وتتلاشى كلّ أعطالها، حالما يقودها لتلاحق غزالة.

يومها، انطلقت سيّارات أخرى في إثر القطيع الذي حلّق وراء النجود. لم تكن التضاريس تسمح بسرعة أكثر من أربعين كم بالساعة كحدّ أقصى، بينما الظباء جميعها ركضت بسرعة، لم يكترثوا بالثلاثين غزالًا أو أكثر. كانوا يريدون النجود، لكنّها ركضت.. وركضت.

لاحقوا تلك الطريدة. المزهوّة بكبرياء حيوانيّ وبدائيّ وفطريّ، نجحت في الإفلات من القنص ـ القتل. ثمّة عدالة خفيّة ومبهمة خيّمت على تلك اللّحظة، يد غامضة حمت تلك الطريدة التي كانت أجمل من أن تسقط ضحية للبندقية. غادرت الغزالة، انصهرت مع الآفاق السرابيّة البعيدة، مخلّفة وراءها ظلّها الناحل الواهي.هنالك من اختار لها أن تغيب في المجاهل من حيث أتت.

أشعّة الشمس حادّة.. أزرّ عيوني: تعبر الطريق أفعى، ابن خالي يبطئ، يسمح لها بالعبور .

ينبغي أن نترك مسافة «أخلاقيّة» بيننا وبين هذه الحيّات التي قد تعضّنا دون قصد، تدافع عن نفسها، تظنّ أنّ المصادفة التي أخذت خطواتنا صوب عالمها هي خطى متعمّدة لأذيّتها. مبكرًا عرفت أنّ التوحُّش أحد أهم أشكال الخوف.

في لحظة بطيئة، متردّدة، قرّرنا أن ننعطف لنسلك درب الخاتون

عمشة. لم يكن أمامنا غيره، الجميع يخافون الأشباح، كان علينا أن نلوذ بعالم الأشباح حتى لا ترانا الأعين. سلكنا درب الخاتون عمشة، ستلفّنا الأشباح بغموضها، ستشتّت أبصار القدر، والأعداء، والبنادق. كانت ثمة أجزاء ممحية منه، محاها دمُ امرأة قتلت هنا بالضبط، كانت في سيارة الجيب ولّس ترافق ذلك الضابط الذي لم يسعفه الحظّ بالدفاع عنها. هنا بالضبط، لحقت بهم عدة سيارات جيب ولّس، يقودها أبناء عمومة الخاتون عمشة، وبدأ إطلاق الرصاص. قُتلت الخاتون في بداية المعركة التي دارت بين سيارة واحدة مقابل عدّة سيارات حاصرتها. أخيرًا، سمحوا للضابط بقيادة السيارة، وهو جريح نصف ميّت..

لم يكونوا يريدون استفزاز الفرنسيين. ومع ذلك بعد يومين، طارت عدّة طائرات فرنسيّة غاضبة، ورمت قنابلها على مضارب العشيرة التي سرعان ما قطعت نهر الفرات وابتعدت عن ديارها.

يومها، رميت جثة الخاتون عمشة، في أحد الصهاريج الرومانيّة في خربة الأندرين.

كلّ شيء بدا واضحًا كأنّما كتب فوق راحة اليد، بدأت تلوح لنا القرى المتاخمة لمدينة السلميّة. علمنا أنّنا غدونا في الأمان تقريبًا. لمحت من النافذة الخلفيّة، تلك الآفاق الشاسعة التي تتمدّد بصبر لانهائيّ تحت ضوء الشمس المتوهّج. نزعتُ النقاب عن وجهي، تنفّست قليلًا. رحلتي كانت شبيهة بإكراه النهر كي يجري على نحو معكوس. أراقب الدرب من الأمام ومن الخلف، أسترق النظر نحو الآفاق.. أبي كان دائمًا ينبّهني بقوله: هدوء الأعصاب ينقذ الفريق، وليس السباحة.

سلكنا ذلك الدرب، ونحن نعلم أنّنا من الآن سنجتاز دروبًا قد لا تقود إلى مكان أبدًا، نجتاز المسافات.. دروب، دروب لا تنتهي بالوصول أبدًا.

أخلِ الطرق يا ذئبة:

غير مسموح لسيارة الشقروليه أن تسلك دربًا غير ذاك الدرب، فالدروب تورّث، كما الأحزان والثارات والدماء.

حتى لو تحوّلت بادية الشمبل، التي تتاخم تدمر وحمص وسلمية وحماة وحلب، إلى أرض لتصفية الأحقاد تحت ذرائع مختلفة، فإنّ ثمة سيارة شقروليه حمراء تعبر ذلك الدرب الذاهب من مدينة «السلمية» صوب «قصر ابن وردان»، تُخطئها كلّ مدافع الجهات المتقاتلة، ودقّة تصويب القناصة، وقصف الطائرات، وكما الشبح تقطع دربها لتبلغ «قصر

ابن وردان».

•••

الذئب يغنّي دون كلمات، العواء هو القصيدة الأكثر اكتمالًا لحيوان يحمل جينات شعريّة.

العواء صيحة تريد أن توقف تحرّك الأشياء، تسمّر الانتباه. العواء موروثات وتقاليد الذئاب اختزلوها بكلمة وإيقاع واحد.

العواء، حقًّا حزن! إنّه مثل السراب يتملّص من جهود علماء الطبيعة ومحاولاتهم لتعريف ماهيّته وعنونته.

هل حقًّا عندما يموت الناس يصبحون تاريخًا؟! أتنقّل بين كراسي مقاهي مدينة بيروت، التي اخترتها لتكون مدينتي بشكل ما، أو ربّما العكس هي اختارتني، لا فرق. المهمّ، أنّي هنا في مجال تحت أحمر وآخر فوق بنفسجيّ. أرض تقع خارج الطيف المرئيّ. مكان لا يخضع لسلطة الرؤية.

«فلان خان الثورة»، الجميع مشغولون بنقاء الثورة. والطرف الآخر يقذف كلّ من غادر الوطن هربًا من الموت بـ «الخائن». إنّهم مرتزقة الحروب والثورات والشعارات، يحرسون تهمة جاهزة: «الخيانة»، تمامًا كتهمة: «التكفير»، الاستعمال واحد: القتل، اغتيال الآخر، وكلّ محاولة للتفكير والعقلانيّة.

رغم مرور ثلاث سنوات على رحلتنا ـ «هروبنا»، من باديتنا، لكنّي أتلفّت كلّ يوم ورائي، أظنّ أنّي للمرّة الأخيرة ألمح شاهدة القبر. هل يحدث أن يكون للأموات أمكنة؟! لكنّ الأمكنة لا تتحرّك، بينما الأموات يجولون، يتحرّكون بهدوء، يمرّون من خلال معابر الحلم، يطلّون علينا بطريقتهم، لا يغادروننا قط. يستمرّون في عيوننا. تُحييهم الذاكرة، وتترك لنا الحزن، يستمرّون في عيوننا ونظلّ مجروحين بحضورهم.

المسافات غير موجودة في عالم الأرواح. عبر النهار والليل، عبر الطرقات البعيدة، وعبر السنين، ستبلغنا، ستعثر علينا روحك، ياسر. ستخطر لي مثل تلك المنامات التي ترفرف فجأة كالحمائم، كالأحلام.. يا للأحلام؟! مخلوقات الهواء هذه، ستظلّ تخدعنا إلى الأبد.

أكتب.. وكتبت، وكتبت، لأنّ المسافة والصمت يعبّئان أوراقي بالكلام، أبحث عن التحرّر، التحرّر من قهري.

أخالس شوارع بيروت، وأنظر إلى السماء. كلُّ البدو اعتادوا النظر إلى السماء، في كلّ الأوقات والظروف. الصحراء المقفرة دفعتهم للتعلُّق باللّيل المتألّق بنجومه القصيّة.

لمحتهن هناك «بنات نعش»، يرسلن ألقهن إلى الأرض، وحدهم البشر المفتوحو الأعين يتلقّون ذلك الألق.

ذات خريف مضى قبل ثلاثين سنة، دلّتني جدّتي على نجمي «الشولة». كوكبان متقاربان يكادان يماسّان ذنب العقرب، وتسمية شولة لارتفاعهما. يقال: «شال بذنبه»، وبعدها إبرة العقرب، كأنّها لطخة غيم، وهي تطلع لتسع ليالٍ خلون من كانون الأوّل، وتقول جدّتي «إذا طلعت الشولة اشتدّت على العيال العولة»، في نوئها يسقط الورق كلّهُ، وتكثر الأمطار.. إنّها كواكب الخريف.

الخريف الآن، بيروتي، بينما «الذاكرة» مثل طير جارح، تحوّم حولي، كأنّي نصب تذكاريٌّ للموت.

أمشي، أقطع شوارع بيروت، بينما أتّكل على الضوء، ذلك الضوء الذي أنتسب إليه، يبلغني متسلّلًا كروح، كشبح يعرف وجهته، يدرك أنّ ثمة شيئًا ما يفرضه الأمس على اليوم. لم أغيّر عاداتي الغريبة: أتحدّث مع الأشباح، ألمحها فجأة تلك الكائنات المعلّقة بالهواء، يؤنسني حضورها فجأة.

أساوم الألم، وأكتب.

ياسر.. أنت تموت، لنتحوّل كلُّنا إلى مسافرين، مسافرين دائمين، اليوم نحن في لبنان. من يدري غدًا أين نكون؟ يرنّ جوّالي، صوت مراد ابنك الصغير يصيح بي: «عمّتو.. لا تجي بدون ما تجيبي معك حصان». من علّم هذا الصغير أن يحبّ الأحصنة؟! هل هي صحبة جدّه الذي اعتاد مرافقته إلى مزرعة تربّي الخيول في أحد الوديان المتاخمة لمرتفعات مدينة عاليه؟ عندما جلبت له حصانًا محشوًّا بالقطن، لونه بنّيّ، سألته ليش بتحبّ الحصان؟! أجاب دون تردُّد:

«عمّتو، لأنّو بيركض بدون ما يُوَنِف» ، إذن الأحصنة تنهب الأرض، تقتل المسافات، وتركض.

إذن، يريد أن يخبرني أنّه وقع في غرام كائنات تعدو دائمًا، لا تتوقّف قط..

أراقبه يلعب بين الأولاد، في مدينة عاليه الجبليّة. جميعهم يقلّدون حركات السيارات والموتوسيكلات، وحده مراد يخبُّ كحصان.

هل حقًّا جيناتنا هي جذور حياتنا، تصطادنا أينما كنّا، بمكر المياه الجوفيّة تجري في عروقنا، تصلنا؟!.

مناف، كفّ عن السؤال عن مكان أبيه، عندما أخبرته أمُّه أنّه في الجنّة، سأل مناف: «إذن لماذا لا نستأجر تكسي ونذهب لعنده؟!» وحدها براءة الأطفال تهزمنا..

وائل، الذي كان مولعًا بغناء الراب باللّهجة البدويّة، وتقليد رعاة الأغنام، وبالحديث عن أوصاف النعاج، والأكباش. نسي لهجته البدويّة، ولم يعد يثير استغراب المدرّسات اللبنانيّات صبيٌّ أشقر بعينين خضراوين يتكلّم لهجة بدويّة، أصبح يتحدّث بلهجة أهل عاليه «الدرزيّة»، ويدبّج عباراته بمفردات مثل: بليز، وميرسي.

سارية، كبرت. لم تعد طفلة، إنّما مراهقة جميلة، بيضاء بشعر أسود طويل. نسيث عامين من البداوة مزا بحياتها. أخذت من عمّاتها: «المنامات» التي تقول كلّ شيء، عزافة صغيرة، الأب الذي أحبّته وفقدته، يزورها في ليل صامت. بالكاد تمرُّ ليلة لا تبصر فيها أباها في المنام.

سمهر، لم يعد مراهقًا. غدا شابًا وسيمًا بعينين واسعتين لهما زرقة البحر، أتلصّص عليه وهو يتوسّط الفتيات في الحارة، ورث عن أبيه وسامته، وطبعه اللّعوب مع النساء. أخيرًا، تنكّب حقيبة السفر، مضطرًا أن يصبح رجلًا قبل الأوان.

سوداء هي الأحزان، وفاطمة تلفّعت بالأسود إلى الأبد، ترفض التقاط الصور، تطبخ، وتخبز الحلويات، وتهتمّ بأولادها على طريقة أنثى السنونو.

وحده، مراد نجا من الابتسامة الحزينة، يملك ضحكة مشرقة رنّانة حقيقيّة. نعم، عندما ننجو من الذاكرة، من الحزن، نمتلك ضحكاتنا كاملة..

أعبر شوارع بيروت، وفي الوقت نفسه أمشي هناك، حيث تنمو الحشائش في مرج أخضر ينتظر الغزال ليقضمه.

أمّي، عندما قصدت الطبيب تشكو ضعفًا بالرؤية في إحدى عينيها، قال لها: «مي زرقا»، طبّيًا هي حالة تصيب العيون التي تذرف الدمع خلال الاضطجاع، وأمّي بكت وهي ماشية، وواقفة، ونائمة، ونصف غافية،

ومضطجعة.. بكت وبكت.

أبي.. ليت أفكارك وكلماتك، تغدو مسموعة! لعلَّ ذلك يريحك. يصمت كثيرًا، يلتهم كلّ الكتب التي يمكن أن تصلها يداه. غدا مراد الصغير الذي لا يذكر أباه، رفيقًا دائمًا لجدّه. أخذ عنه معظم طباعه اليوميّة: ينهض صباحًا، يغتسل ويتعطّر بماء الكولونيا ويمشّط شعره تمامًا بالطريقة ذاتها التي يسرّح بها جدُّه شعره.

مرام، عقب ثلاث سنوات على المأساة، تزوَّجت. وأصبحت أمًّا لطفلة، يبدو أنَّ الفرح يتقن التسلُّل من مكان كنت قد أغمضت عنه عينيك. قبل أن نغادر المزرعة بلحظات، همست لي مرام وقد رأتني أرشح خوفًا: الطير الذي لا يرى الشباك ينجح بالفكاك منها، بينما الطير الذي يراها، يطير محاذرًا خائفًا، وسرعان ما يؤسر ويتدلّى بعنق مكسورة.

وائل الطبيب، سافر، وثمّة شظيّة لم تخرج من كتفه، يحملها معه، كتذكار لا فرار منه.

شيئان فقط حملتهما معي: ختم جدّي، ودمية عشتار الفخاريَّة البدينة بعينيها الواسعتين كشمسين سطعتا في سماء واحدة.

أتمعَّن بتلك الربّة الصغيرة. كنت أكيدة أنّها عندما حكمت في زمانها، وكانت آلهة في السماء، لم تكن تحبُّ العباد الأتقياء، كانت ترحّب بالمذنبين، بالمثقلين بالخطايا، وخطايا الحبّ تحديدًا هي امتيازات عند عشتار. تعرف أنّ الأرض مكان للآثام ومقترفيها. تعرف أنَّ الفردوس يتركنا نعيش بمذاق اللّحم النيئ، بينما الجحيم وحده مكان حقيقيٌّ للنضج.

مزرعتنا لم تعد موجودة إلّا كفيديو لحطام بائس.

يمكن لأيّ منكم أن يكتب التالي على اليوتيوب: «تدمير المستشفى الميدانيّ لريف حماة الشرقيّ»، هذا اسمها الذي أطلق عليها بعد أن اجتاحتها إحدى الجهات الإسلاميّة المتطرّفة. نهبوا ما وصلت إليه أيديهم ـ هؤلاء «الثوار» المزعومون، ثمَّ حوَّلوها إلى مستشفى ميدانيّ تفوح منه رائحة الدماء. دماء من يُختطفون ويُقتلون، لأنَّهم فقط متعلّمون قليلًا، ويطرحون الأسئلة أكثر من اللّازم، ودماء موتاهم ـ «شهداؤهم»؟!

بعد عدّة أشهر، قُصفت المزرعة من قبل الجيش النظاميّ، قنبلة فراغيّة واحدة رمتها أرضًا. حديثًا، اعتُقل ابن عمّنا لمدّة يومين من الاستجواب المضني لدى الجماعة ذاتها. ليومين متواصلين سألوه، السؤال عينه: أين أخفى عمّك أثاث المزرعة؟! يا للحمق والسخافة والقهر! هؤلاء

يزعمون أنَّهم سيحرِّرورنا! عندما أخلينا المزرعة ونجحنا جميعًا بالوصول إلى الشام على دفعات: بداية أنا ووائل ومرام، ثمَّ سارية وسمهر، ثمَّ أبي، وبعد ذلك فاطمة والصغار. أُمّي، أصرَّت أن تكون آخر من يغادر المزرعة. لمدَّة أسبوع باتت هناك، دون أن تجرؤ على إضاءة الأنوار.

لم يعرف أهل القرية أنَّها موجودة في المزرعة التي بدت لهم مهجورة تمامًا. استطاعت ليلًا تهريب بعض الأثاث والأشياء التي قرَّرت الاحتفاظ بها، لأنَّها تذكِّرها بشيء ما، بحدث ما. في مساء اللّيلة الأخيرة لها هناك، ظهرت فجأة قبيل المغيب ملفَّعة بسواد الحداد، لتقطع المسافة التي تفصل المقبرة عن القرية مشيًا على قدميها. لم تكن ترى أحدًا.كانت الذئبة التي تتشمَّم رائحة وليدها.

كانت تعرف أنَّها ستنقطع لسنوات عن زيارة قبر ابنها. وقف معظم أهل القرية ينظرون ذلك المشهد الذي لم ينسوه قط: تلك السيِّدة البيضاء طويلة القامة المتكتِّمة والمتحفِّظة، والتي قلّما تظهر في المناسبات الاجتماعيَّة، خرجت تعفِّر ذيل عباءتها السوداء بتراب الدرب الترابيّ الذي يقود إلى أرضنا، حيث قرَّر أبي دفن «ياسر».

جميعهم، أهل قريتنا، المحبون، والناقمون، والحاسدون، والمبغضون. راقبوا المرأة الحزينة يغمرها ضوء الغسق الأحمر وهي تودِّع القبر: تلثم ترابه، تنهض لتغادر، تمشي بضع خطوات متعثِّرة في طريق العودة، لكنَّها تلتفت إلى الوراء مرّة أخرى وتذهب لمعانقة القبر تتشمَّمه وتتلمَّسه، ثمَّ تلملم نفسها لتعود أدراجها إلى القرية قبل هبوط الظلام، ويستوقفها الحزن، يشلُّها، يعيدها دون وعي إلى القبر، لتبكيه للمرّة الألف والمليون.. البكاء لا ينتهي والحزن مديد كالعواء. الذي يرثي قصّة منسوخة طبق الأصل عن كلّ قصص الحزن في وطني.

كلُّهم قتلى وبالمجان، جميعهم ضحايا لمحرقة كبيرة، تصفية الثارات الطائفيَّة والعقائديَّة والإيديولوجيّة.. أنتم ضحايا حقد عمره مئات السنين، جميعكم على امتداد الخارطة. وطني المنكوب بماضيه المرّ، حيث لا مسامحة ولا غفران، قدرنا أن نُقتل بذنوب غيرنا، قرارات اتُّخذها الأجداد، يراها البعض ذنبًا لا يغتفر.

يرتاح الموتى، بينما نحن قدرنا: الحزن.

الموتى، يلفّهم التراب بطمأنينة لم يعثروا عليها قطّ في الحياة. سيرتاح أولئك الذين ماتوا، الذين عثر الأهالي على جثثهم، دفنوهم،

بكوهم، ندبوهم، وأولئك الذين لا يمكن العثور على قبورهم:

لا رفات، ولا جثامين، كثير وكثير من القتلى لم يَعثر أحد قطّ على أجسادهم، ولا حتى نتفة من أشلاء تطايرت في سماء الغضب الدمويّ.

طبعًا، لن يقرأ هذا الكتاب، المثقّفون الذين هم كذلك، فقط لأنّهم محاطون بالأمّيّين؛ ولا الأبطال الجدد أو المستقبليّون الذين سيشغلون أنفسهم بتصنيع شعارات جديدة لتبرير السرقات، والقتل، وزرع الحقد والبغض؛ ولا أولئك الذين ستزدان بزّاتهم العسكريّة بالأوسمة التي نالوها عن القتل الكثير. هم أنفسهم الذين يرسلون «الآخرين» إلى الموت، اخترعوا القيم التي تمّت تعبئتهم باسمها، دون أن ينسوا تخصيص دقيقة صمت لأرواح القتلى، التي تحمّلت نفقات شعارات كاذبة كالحريّة والوطنيّة والديمقراطيّة وغيرها.

أفكّر بالمستقبل، وأنا أعي أنّه في كلّ لحظة يُعذَّب بشر، وآخرون يقتلون بالرصاص، والأسوأ حظًّا يُنحرون كالخراف بحدّ سكّاكين الذبح، وهنالك الذين نجحوا بالهروب أو الاختباء أو الاختفاء أو التواري.. وكلُّ لحظة هنالك من يُجرح وهنالك آخر يُضمِّدُ جرحه.

في كلّ الحروب الكلمة الأخيرة ستكون دائمًا للموت.

أعرف أنّ الحكايات الشفهيّة، أو الروايات، لن تضيف شيئًا إلى هؤلاء الموتى، إنّما نكتبها لعلّنا نشفي ولو بضعة سنتيمترات من جراحنا الغائرة كطعن لا قرار له، الطعنة الأكثر عمقًا من وديان سحيقة، شقّها الزمان في بطن الأرض عبر سنين طويلة، بينما وديان حزننا شُقت ببضع لحظات.

من قال إنّ الأرواح تصمت!؟

«موالون، معارضة، وبين بين..» اصمتوا، فالحزن أكبر من الاتّهامات التي تتقاذفونها فيما بينكم بشهيّة الجائع الأزليّ لخبزة مفقودة.

..هل أكتب؟ هل يمكنني أن أبارز صورة فوتوغرافيّة واحدة لإحدى المذابح التي ارتُكِبت بحقّ السوريّين؟ هل يمكنني مواجهة كلّ هذا الجهل والحزن والقهر بالكلمات وحدها؟ ! هل أكتب عن الجنود الذين سقطوا في مواجهات مع أهلهم؟ أم عن قطّاع الطرق وسكاكينهم المعدّة لذبح البشر؟ هل أكتب عن ثائر تذرّع بإزالة القهر ليقهرنا؟! ثوّار جاؤوا لشيء فأصبحوا شيئًا آخر.. هل أكتب لأحتجّ على ضعة أكيدة في أخلاق العالم وهو يتفرّج على موتنا؟

كنا في مدينة عاليه اللبنانيّة عندما بلغنا نبأ تدمير المزرعة. رفض أبي رؤية الفيديو. أصرّت أمّي أن تشاهده، تذرّعتُ أنّ النت ضعيف، ولا يعمل، لكنّها استطاعت إقناع العامل في محلّ للإنترنت. رأتها، لم تبك، لأنّها ببساطة بكت كثيرًا وطويلًا. أمّا أنا، فتجرأت على رؤية الحطام بعد سنة من تاريخه. يوم تلقّيت النبأ، انتعلت حذائي الرياضيّ فقط، ووضعت سمّاعات الجوّال في أذنيّ، وسمعت بعضًا من موسيقانا المحليّة، ربابة حسن الشريف وصوت التلاوي، بينما أقطع تضاريس مدينة عاليه الصعبة مشيًا على الأقدام جلت بين تلك القصور المهدّمة التي خلّفتها الحرب الأهليّة اللبنانيّة.. الآن، جاء دورنا كسوريّين لنتجرّع السمّ الطائفيّ ذاته.

عبر بريد «الفيسبوك» تصلني صورة لأسلحة مختلفة: البارودة الفرنسيّة المصنوعة في عام ١٩١٢، كانت لعمّي ذات يوم، أهداني إيّاها أحد أبنائه، وظلّت أهمّ مقتنياتي، استطاعت أمّي تهريبها مع أشيائها المفضّلة في اللّحظات الأخيرة قبل اقتحام المزرعة. الكلاشينكوف العسكريّة، التي تخصّ أبي، لم تُستخدم قطّ إلّا لإطلاق الرصاص في حفلات الزفاف.

مسدّس والتر ألمانيّ، مسدّس «الجنرالات»، من أفضل المسدّسات الألمانيّة، يبقى لمدة ٣٠ سنة بدون أن يتعطّل، وكان هذا المسدّس لا يسلّم إلّا لجنرالات الجيش النازيّ. وصل أبي هديّة من صيّاد لبنانيّ، قبل حوالى أربعين سنة، أي قبل أن يصبح جنرالًا بسنوات طويلة. أيضًا مسدّس روسيّ نوع ماكاروف، لا أعلم بالضبط إلى متى يعود تاريخ صنعه. جفت صيد روسيّ يسمّى «توز»، بفوهتين، خشبه أبنوسيّ أملس لامع، و«الكنزمة» من الفضّة نُقش عليها عدّة أيائل وسط غابة، يمكن للسلاح أن يكون جميلًا وأنيقًا كهذا الجفت الذي كان سلاح ياسر المفضّل.

والشيء الأكيد بشأن كلّ الأسلحة أنّها اختُرعت ليتساوى الشجاع بالجبان، ليسهل الغدر أكثر، والاغتيال، والتآمر، لتكتظّ القبور بالمغدورين، لتشعرنا بفرط ضآلتنا على هذه الأرض.

أصبح «الفيسبوك» وسيلة التواصل المفضّلة، عبره تأتيني صور تلك المقابر التي حُفرت قرب كلّ منزل في ديرة الشنبل، لتحميهم من القصف اليوميّ. كلّ يوم هنالك نبأ عن قتل أحد أقاربنا بعد تكفيره، والقتلة هم من أبناء العشائر نفسها، بينما قادتهم جاؤوا من بقاع مختلفة من الأرض، بالكاد يتكلّمون العربيّة الفصيحة! من قال إنّ الثورة هي ثورة ذلك الشاب الذي ارتدّ إلى شرنقته الدينيّة، لتزيد بذلك صفوف الموتى؟ أليس الأجدى بنا أن نثور على التاريخ المزوّر والمزيّف والمحرّف، الذي يدفعنا لقتل بعضنا

بعضًا، تاريخ ينبغي أن يمسّ بطريقة جديدة.

لتكون لنا سماء جديدة وأرض جديدة، علينا أن نخلع جلدنا القديم، كلّ شيء يجبرنا على أن نكون أفاعي اللّحظة، الأفعى التي تبدّل جلدها القديم لتنمو وتطول وتقوى.

تغويني فكرة، اللامنتمي، لعلّي أتحرّر من خرافات «الانتماء»، وقول كلمة «نعم» لكلّ كذبة، يقذفها بوجهنا تاريخنا المزوّر. المستقبل ينفر وينعدم إذا لم نتعلّم كيف نعيش، كلّيًا، بكلّ جوارحنا، في الآن، نملأ: «الآن»، ليكون لنا مستقبل، لكي لايغيّرنا الزمان، إنّما لنغيّره نحن.

المستقبل ليس شيئًا يُرمى صوبنا، ليس شيئًا خارجيًا منفصلًا عنّا، المستقبل فينا.

أرتشف قهوتي، مطر بيروت غزير، حالما تحاصرني تلك اللّحظات المقفلة مثل قلب خائب. أكتب. عندما نكتب، فإنّنا نعطي الورق ما هو ملكه، لا نملك إلّا ما نكتبه. لا يحدث حقًّا إلّا ما ندوّنه. ياسر، كلّ اليمامات التي رعيتَها يومًا عبرت من هنا، فوقي تمامًا، عثرت عليّ رغم المسافات، أسمع هديلها وكأنّها لم تبنِ أعشاشها قطّ إلّا بين عظامي. هدلت، ثمّ عبرت صوب تلك الأرض الخلاء.. اليمام كما الكلمات، ينجح في قطع مسافات شاسعة.

حتى لو كنت هنا، بعيدة جدًّا، أنهض صباحًا وفي أذنيّ صوت خالي وهو يصيح لصقره «غنّاام»، بينما يلوّح له بطريدة وهميّة ليست إلّا دمية مصنوعة من ريش الحبارى، يخبّئ خالي بين ريشها قطعًا من اللّحم يلقّمها لصقره، بشكل خفيّ من بين الريش، ليوهمه أنّها صيده.

لم أقطع وعودًا قطّ: لم أقل أنّي سأنسى، ولم أقل أنّي سأتذكّر.. لكنّ الشيء الأكيد أنّي منحازة إلى تلك اللّحظة التي يتحتّم علينا فيها أن نضرب أجنحتنا بقوّة لنحلّق بعيدًا، لنبدأ سيرة تحليق جديدة.

خالي قنّاص الصقور، كان يقول لي دائمًا:

مهما كانت رؤوس الجبال عالية شامخة، ثقة صقر سيحوّم هناك في فسحات السماء بحثًا عن ارتفاعات أخرى.

...

....

لا تعوِ أيّها الذئب! لنصمت.. لنفسح الطرق لمشاعر هي أصعب من

أن تصفها أو تلتقطها الكلمات، لنترك الميّتين ينامون، في الصمت: مأواهم.